القرآن والجمال

مهندس

الصافي جعفر الصافي



بطاقة فهرسة

الطبعة الأولى 2012

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : **القرآن والجمال**

المؤلف : م. الصافي جعفر الصافي

رقم الإيداع :

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٩٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

إهــداء

إليك والدي الكريم..الشيخ

جعفر الصافي..

هذه الجولة المتواضعة في دهاليز القرآن.. فقد طالما سمعتُك تُدندن بكتاب الله وقت السحر وأنا طفلٌ صغير أرنو إليك.. ولطالما شهدتُ مجالسَ عامراتٍ لك وأن تجوس خلال القرآن .. تتأملّه .. وتتلمّس عجائبه..

وكانت من أُمنياتك أن نتعلّم القرآن.. ونتعلّم التأمّل في مكنونه .. فهل تُراني اقتربت من تلك الأمنية..؟

رحمك الله وأجزل لك الثواب..

من الناشر

كتاب القرآن والجمال للمهندس/ الصافي جعفر الصافي، هو جولة عارف بالقرآن متأملاً فيه متلمساً عجائبه.

والقرآن الكتاب الخاتم لفت النظر إلى هذا الجمال في هذا الكون والجمال في الطرح القرآني قيمة أساسية من قيم هذا الوجود وليست أمراً هامشياً وهو كذلك من أمور العزائم أيضاً لأن القرآن استصحب الحقائق الجمالية ليدلل بها في أكثر القضايا جدية مثل قضية البعث كما ورد في سورة (ق) والتي يتم تناولها.

والقيمة الجمالية في القرآن قيمة واسعة شاملة تعمل في ميادين الكون العريض كله في ممالكه الأربعة: مملكة الإنسان، مملكة النبات، ومملكة الجمادات.

والكتاب محاولة للدخول في آفاق لا يطرقها الآخرون كثيراً فهي آفاق منسية وأيضاً مخشية يخشى الناس الحديث عنها. وسيلفت نظر القارئ – في هذا العمل أن القرآن اهتم بهذه الآفاق واستصحبها في جملة خطابه للبشرية.

إن كتاب (القرآن والجمال) يحيط بكل هذه المعاني ويرتاد كل تلك الآفاق، ليضيف إلى المكتبة السودانية، عملاً جديداً في مجاله متميزاً في تناوله ومعالجاته.

ونسعد نحن في هيئة الخرطوم الجديدة للصحافة والنشر أن يكون كتاب (القرآن والجمال) للمهندس الصافي جعفر هو ثالث إصداراتنا ضمن سلسلة الخرطوم عاصمة الثقافة العربية 2005.

تقديم

عبر رحلة الحياة، هناك نهر جوفي يجري تحت وديان أعمارنا. وبالرغم من المشـاغل وتقلب صـورة الحياة، يتدفق هذا النهر، ينبسـط حيناً، ويضـيق في مجراه حيناً آخر. فينا من يشـعر بوجوده الخفي شـعوراً يقينياً أو غامضـاً، لكن أكثر الناس قد لا يجد لمصـدره تحديداً. وقد يسـميه البعض لنفسـه أسـماء شـتى وفقاً لتكوينه العقلي أو الاجتماعي أو المهني، هذه الأسـماء على تعددها تلتقي بداية في إحساس واحد.. هو التعلق بالجمال، ثم تنتهي – بمحض الفضل الإلهي – إلى مستقر لها.. هو التعلق بالجمال في جنب كلام الله العزيز الحميد، حيث تلتقي قرائن وأدلة بشـهود للجمال فينا ومن حولنا حساً ومعنى.

إنها تجربة الجلوس على مائدة الجمال الكبرى. أما الجالسـون عليها هم أولئك الأغنياء القراء المتأدبون الذين لا يعلنون إلا عن ما تيسـر لهم ذوقاً، أو علماً فلا تضـييق لواسـع ولا دعاوى. جملة واحدة، هي تجربة تذوق الجمال والتفكر في أصـوله وفروعه بعد أن اسـتعلن النبأ العظيم في حياة الإنسانية.

ولك أن تتأمل في ما طلعت به حضـارة الإسـلام عبر تجربتها التاريخية حيث تبتدي أذواق وفكر مُحكم ومعارف وفنون وتطبيقات طابعها الأصـل الرؤية التوحيدية في حياة أجيال وأجيال. هذه الرؤية التوحيدية عرف الطريق إلى أقباس من نورها علماء

وفلاسـفة ومتصـوفة وشـعراء وفنانون ومعماريون وعلماء طبيعة ومناطقة ولغويون وغيرهم وغيرهم، فازدهرت أنسـاق من العلوم الشـرعية والتطبيقية ومن رفيع الكلم نثراً وشـعراً، ومن بدائع الفنون في التلوين والخطوط والزخارف وجليل المعمار، ما يجعلك تظن لوهلة أن النماذج الممتازة من فنون الإسلام لم تكن من صنع بشر!! وما ذلك إلا إحكامها تصوراً وتنفيذاً.

ثم لك أيضاً، أن تتفكر في هذا التحقق التوحيدي وأنت تطالع فصولاً من سير حياة تلك النفوس الشريفة لرجال ونساء ذوي قامات روحية فارهة ممن عرفتهم فضاءات الحياة الإسلامية على تعاقب العهود والفترات.

فيوض من الجمال تغمر الأحياء والأشـياء، وتجد شـروط وجودها على هذا النور الذي أُنزل مع النبي الجميل التام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

في الفكر الغربي، ومنذ جذوره الإغريقية، تطور تاريخياً ما يُعرف بعلم الجمال «الاستاطيقا» وتعددت مباحث هذا العمل بتعدد فلاسفته، وقد أصبح جزءاً عضوياً من فلسفة النظر الغربي إلى هذا الوجود. ولأسباب ترجع إلى المباينة بين المعتقد التوحيدي الإسلامي وبين المذاهب الفلسفية الغربية بصورة عامة، تشير بعض دوائر البحث الجمالي الغربي إلى غيبة «علم الجمال» من الفكر الإسلامي. وحقيقة الأمر، أن «علم الجمال الإسلامي» لم يغب عن فكر وحياة المسلمين من لدن نزول الوحي الكريم وتمظهره في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وفي حياة أصحابه الكرام، لكن تعددت مظان هذا العلم في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية المطهرة، في علوم التفسير والتأويل، في علم التصوف الإسلامي، وفي الفلسفة الإسلامية وعلوم الحساب والهندسة.

اليوم، وقد أصبح الفكر الجمالي والفنون بمختلف ضروبها وعلومها جزءاً من الصورة الأساسية لعصرنا هذا يصبح لزاماً على المتخصصين والمفكرين المسلمين العمل منهجياً للنظر في هذه المظان المتعددة لبلورة «علم الجمال الإسلامي» والدفع به إلى حيز حياتنا الثقافية، بل للإسهام بأصالته التوحيدية في الحركة الجمالية والفكرية لحضارة أكثر سمواً ونبلاً تنظرها البشرية جمعاء.

كأني أراه بعين خيالي، ذلك النهر الجوفي الذي ترقرق منذ أوائل طفولة الشـيخ المهندس الصـافي جعفر الصافي، عندما كان يسمع والده يدندن بكلام الله وقت السحر، ثم ينصت لأحاديث مجالس عامرات بالذكر الحكيم من بعد ذلك.. لقد أفضـى به ذلك النهر إلى مأدبة الجمال الكبرى..اللهم اجعلنا من المنصتين التالين الذاكرين أهل الشهود.

د/ أحمد عبدالعال

جامعة السودان/ عميد كلية الفنون الجميلة

مفاتحه وترحاب

الجمال شـــيءٌ لافت، آســـر، لا تخطؤه العين .. ولا تتجاوزهن .. وهو حقيقة جاذبة، عرفتها البشرية بكافة أجناسها وأصنافها، وتغنّت بها ولها. والكون الذي نعيش فيه زاخرٌ بالجمال، وبمواقع الجمال في كلِّ مفرداته: الأرض، السموات، الشجر، الصحراء، الجبال، الإنسان، الحيوان.. النجوم، الشمس، القمر الخ.

والإبداعُ الإلهيُّ تُحسُّ به كلّ شيء.. خذ مثلاً مغيب الشمس بجانب نهر من الأنهار.. هذه حقيقة علمية فلكية.. الشـــمس تأخذ دورتها ثم تغيب في ســـاعة محدَّدة في تلك البقعة.. هو منظرٌ يتكرر كل يوم، وحقيقة فلكية مضـطردة.. ولكن تعال.. ودقِّق النظر ســاعة المغيب لترى كيف تختلط الحقيقة العلمية بالحقيقة الجمالية الآ سرة.. تنظر لل شمس وقد ا صفرَّت، وألقت أ شعتها على نهرٍ جارٍ تغيّر لونه إلى لون عســجديٍّ ذهبيٍّ .. تتأرجح بقايا الضــوء على صــفحته، فترتســم لوحة جذّابة أخّاذة، لا يســتطيع فعلها البشــر.. تختلط المعارف الفلكية بالمعارف الجمالية في تمازجٍ عجيب هو من صــنع الذي خلق الجمال سبحانه.

تنظر إلى الجبل من قريب فإذا هو قِطَعٌ صخرية خشنة تثير الرعب.. فإذا نظرت إليه من عَلٍ، أو من نافذة طائرة فإذا نفس الجبل زهرةٌ بنفسجيّة، كُحليّة اللُون..

الزراعة.. هي من وجه علمٌ: حراثة.. ري.. وهندسة.. وإذا هي من وجه آخر: خُضرة وجمالٌ، وأناقة واسترواح، تفيء إلى ظلالها فتنسي هجير الحياة ولهيبها.

فالكون خليط من الحقائق العلمية والمشاهد الجمالية، ولذلك كان الجمال عنصراً أساسياً ومكيناً في هذا الوجود.. لم يكن يوماً من الأيام شيئاً هامشياً، حتى الصورة القبيحة واللوحة المنفِّردة يتجلَّى فيها الجمال لأنها عبّرت عن القبح وجسَّمته أمامك، فإذا بك تشمئز من الصورة وَتنفِر منها، وهذا في حد ذاته بابٌ من أبواب الجمال (جمال التعبير والتجسيد).. والقرآن – كلام ربنا الجامع– اهتم بأمر الجمال، وبظاهرة الجمال، لأن الله هو صانع هذا الكون الجميل. وأفرد القرآن حيّزاً واسعاً للفت نظر المسلم، ولفت نظر البشرية عامة إلى هذا المكوِّن الرئيسي من مكوِّنات الخلق.. في عالم الدنيا المشهود وعالم الآخرة المنتظر.

وكثيراً ما يستصحب القرآن الحقائق الجمالية وهو يحشد الدلائل على قضايا أساسية مثل البعث وقيام الساعة كما سنرى..

ولقد أمضيت زماناً في شبابي الباكر وأنا أتتبّع مواقع الجمال في الطرح القرآني والعبارة القرآنية.. أطربُ لها وأهتزّ.. ثم صرفتني شواغل شتّى عن هذا الأمر، ثم قدّر الله أن يجيئني تكليف من الأخوة في إدارة ندوة (إقرأ) الفقهية الإعلامية.. وهم قومٌ أثيرون عندي بالكتابة في هذه القضية.. فعَقدتُ العزم أن أستعيدَ تلك الخواطر وأُسجِّلها..

أخي القارئ

هذه خواطرٌ عنّت لي وهي أفكارٌ فطيره، ومشروعُ بحثٍ، ولا ازعمُ أنّي صاحب تخصّص في هذا الميدان، فصاحبكم يمتهن الهندسة.. ويعمل في ميادينها، ولايزعُم أنّه من علماء التفسير، ولا علماء الجمال.. ولكنها خربشات بين الحيّيْن: حيُّ أهل التفسير.. وحيُّ أهل الجمال.. وهي اجتهاداتُ هاوٍ مسكون يتتبّع مواقع الجمال في كتاب الله.. فإن أخطأ فمن عنده، والله يغفر له، وإن أصاب فمن عند الله..

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

م.الصافي جعفر الصافي

الفصل الأول

السحر والجمال في الطرح القرآني معمار الكلمة القرآنية

الفصل الأول السحر والجمال في الطرح القرآني

تعريفات:

قال الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن:

(الجمال: الحُسْــن الكثير.. وذلك ضــربان: أحدهما جمالٌ يختص الإنســان به نفســه، أو بدنه، أو فعله. والثاني ما يوصــل منه لغيره. وعلى هذا الوجه ما روي عنه ﷺ أنه قال: (إن الله جميل يحب الجمال)، تنبيهاً أنه منه تفيض الخيرات الكثيرة، فيحب من يختص بذلك)..

ووردت مادة الجمال في بضع آيات من القرآن، نستعرضها فيما يلي:

1- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾﴾ [المعارج].

2- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾ [المزمل].

3- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ [النحل].

4- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف].

5- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ [الحجر].

6- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الأحزاب].

ونلاحظ الآتي:

أ- الآيات 1،2،4 تتكلم عن الصبر الجميل.. والصبر من المعاني الصِّعاب، والقيام به يحتاج إلى عزائم وقُدرات.. والقرآن يأخذ هذا المعنى الصعب فيزيّنه بصفة (الجميل) .. المعنى القاسي يمكن أن يكون مدخلاً من مداخل الجمال (جمال القيمة .. وجمال التحمُّل)، ولذلك تكتسب كلمة (جمال) معنى عميق الدلالة، لا يألفه الناس كثيراً.. كأنما الصبر كبسولة غُلقِّتْ بغشاء جميلٍ، حلو، كما يحدث في الكبسولات الدوائية.

ب- الآية (5) تتكلم عن الصفح الجميل.. لكي تعكس صورة للمسامحة، والفضل.. وتصفهما أيضاً بالجميل (الصفح الجميل) وهو جمال سلوك.

جـ- الآية (6) تتكلم عن المتعة والسراح الجميل.. (أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً)، وهو يَنِمُّ عن مفارقة ولكنها.. بإخراج جميل.. وتعبير التسريح تعبيرٌ حضاريٌ، أنيق عن حالة الطلاق.

د- الآية (3) تتكلم عن الأنعام.. وعالم الحيوان.. وتعدّد منافعه، ولا تغفل الآية عن أحد المنافع وهي الرؤية الجمالية (لكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون).

من هذه التعريفات، والإطلالة القرآنية على كلمة جمال، يتضح أن القرآن يستصحب (معنى الجمال) في كثير من أطروحاته.. وسنرى فيما نستقبل من هذه الصفلحات كيف أنّ القرآن لفت النظر لمواقع الجمال، وحّرك حِسَّ المسلم نحو الرؤية الجمالية حتى وهو يسوق البرهان والدليل على قضايا أساسية مثل البعث، والقيامة، والحساب.. فلا ينسى أن يحشد الحقائق الجمالية من ضمن آلياته للإقناع .. فالوجود في القرآن ليس حقائق فلكية، أو بايولوجية، أو جغرافية، أو هندسية فقط، ولكنّه لوحةٌ للجمال والإبداع، ولذلك كان سحر القرآن هو جماع كل هذا الحشد من الحقائق.. ولابد من وقفة نستجلي فيهما شيئاً من سحر القرآن.. وأسبابه.

معمار الكلمة القرآنية وسحرها

هذا القرآن نسيجٌ وحدهِ.. فهو كلام الله وخطابه إلى عباده.. بل آخر خطاب أرسله الله إلى البشرية.. نزّله على قلب رسوله بعد أن هيَّأه لهذا التلقي..

وهو كتابٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولأنه كتابٌ من الله المطلق الدائم إلى البشر المقيّدين المحدودين، فقد وصفه سيّدُ الأوّلين والآخرين بأنه (لا تنقضي عجائبه)، ويعني ذلك أن معانيه تتجدّد عبر كلَّ جيل.. وعبر كلَّ حقبة من حقب التاريخ.. هو باستمرار يواجه قارئه بقوله:

(سنريهم آياتنا في الآفاق).. بالفعل المضارع.. فالرؤيا مستمرة.. والمعاني تتجدّد.

وهو يسوق كل ذلك في أسلوب متفرد جاذب.. شَدَّ الناس، فأفاضوا في تعليل سر هذا الجذب.. وتحيَّروا في كُنهِ (مغناطيسية) هذا الكتاب.. والعلماء- قديمهم وحديثهم- كلٌ يحاول تعليل هذا الجذب. ويعجبني هنا تعبيرٌ ساقه أستاذنا العلاّمة، المهندس (مالك بن نبي) حيث عمد إلى تفسير هذا السر فسمّاه (الظاهرة القرآنية).. كأنه يقول:

إنه القرآن.. وكفى   والظاهرة القرآنية خليقة بالوقوف أمامها.

الأقدمون والمحدثون من الذين كتبوا عن عجائب القرآن وإعجازه، تحدثوا في أطناب عن الإعجاز البلاغي في النسيج اللغوي.. وتحدثوا عن آيات الكون والآفاق.. وعن الإشارات القرآنية إلى حقائق علمية جاء العلم فصدقها..

وتحدث آخرون عن أنظمة الحكم في الإسلام، والتشريع، والاقتصاد.. وتكلموا عن طرحه للأخلاق، وحقوق الإنسان.. وفي الأسرة، والمجتمع.. كل ذلك دندنوا حوله، وحاولوا إستكناه جوانب العظمة فيه.. ولقد أبدعوا.. وصدقوا، ولكنهم قصروا عن الإحاطة، وهيهات.. فقد قال سيّدُ ولد آدم يصف كتاب ربِّنا: (إنّه لا تنقضي عجائبه، ولا يبلي على كثرة الردِّ، ولا يشبع منه العلماء)..

شربْتُ الحُبَّ كأساً بعد كأسٍ فما نَفَذَ الشَرابُ وما رَوِيِتُ

وهنالك وجهٌ من الوجوه مازال بكراً، ولم يطرقه الناس كثيراً.. وهو عندي يحمل سر السحر في القرآن، وسر الجذب فيه.. ذلك هو البنيان الهندسي للجملة القرآنية، أو بلغة أدق المعمار الداخلي للعبارة القرآنية.. هو معمار آسر.. يقودك بمدخل عادي للغاية.. جملةٌ صيغت بلغة عربية مألوفة وأحرفٍ عربية، فإذا ما تأمَّلتها.. وحاولت تفكيكها.. وجدت نفسك أمام بحرٍ زاخرٍ من المعاني.. هذا المدخل أشبه بغرفة كبار الزُّوار في مطار دولة تزورها.. فإذا ما خرجت من الغرفة إنداحت بك السيارة في مدينة بأكملها.. تمشي في شوارعها.. تدخل دهاليزها وتتفيأ ظلالها.

تداعيات المعاني من خلال العبارة لا تنقضي.. وهنا يكمن سحر هذا التنزيل، وهنا يتجلَّى قول الصادق المصدوق (لاتنقضي عجائبه).. والجمال صفة ملازمة للطرح القرآني.. جمالُ المباني وجمال المعاني.. جمالُ الآية وجمالُ الغاية..

جمال يشُّــد عقلك، ويملك قلبك، ويملأ مشــاعرك، فلا تملك أمام الجملة القرآنية إلا أن تهتف (سبحانك الله) وأنت لا تدري على التحديد مبعث الإعجاب، وموا ضع الجذب المغناطيسي.. هي إذا الظاهرة القرآنية، والبيان الهندسي للكلمة القرآنية.. وهو بعد ذلك كلّه المعمار القرآني.

ويمكننا في هذه العجالة تتبُّع ســر هذا الســحر، وأثره على الناس، كُلِّ الناس.. من تراث الســيرة.. حينما نزل القرآن في بداياته، وفعل الأعاجيب في نفوس أولئك الأعراب (كافرهم ومؤمنهم).

1) أثره على المخالفين:

أ- قصة الوليد بن المغيرة: يروي أهل السيرة أن الوليد بن المغيرة سمع شيئاً من القرآن، فكأنّما رقّ له قلبه، فقالت قريش: صــبأ والله الوليد، ولتصــبُوّنَ قريشــاً كلها.. فأوفدوا إليه أبا جهل يثير كبريائه، ويطالبونه أن يقول قولاً في القرآن. فقال لهم: (ماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم مني بالشِّعر، ولا برجزه، ولابقصيده، ولا بأشعار الجن.. والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا. والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه طَلاوة، وأنّه يحطّم ما تحته، وأنّه يعلو وما يُعلى).. قال أبوجهل: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه. قال فدعني أفكر. فلما فكر،

قال: (إن هذا إلا سـحر يؤثر.. أما رأيتموه يُفرِّق بين الرجل وأهليه ومواليه؟).. ولقد سـجّل القرآن هذه الحادثة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾ [المدثر].

<u>ب- إسلام عمر بن الخطاب</u>: تجمع كل الروايات على أن عمر سمع شيئاً من القرآن فكان ذلك سبب إسلامه.. ولقد اخترتُ رواية عطاء، والتي نقلها ابن اسحق، قال عمر: (كُنتُ للإسلام مُباعداً، وكنتُ صاحبَ خمرٍ في الجاهلية أحبُّها وأ شربها، وكان لنا مجلسٌ يجتمع فيه رجالُ قريش، فخرجت أريد جلسائي أولئك فلم أجد منهم أحد، فقلت: لوأنّي أتيت فلاناً الخمّار، فجئته ولم أجده. قلت: لو أني جئتُ الكعبةَ وطُفْتُ سبعاً أو سبعين، فجئت المسجد أريد أن أطوف الكعبة، فإذا رسول الله قائمٌ يصلي. وكان إذا صلَّى ا ستقبل الشام، وأتخذ مكانه بين الركنين الأ سود واليماني. فقلت حين رأيته: والله لو أنّي اسـتمعت إلى محمدٍ الليلة. وقام في نفسـي لو أنّي دنوت منه لأروّعنه، فجِئتُ من قِبلَ الحجر الأسـود، فدخلتُ تحت ثياب الكعبة، فلمّا سـمعتُ القرآن رقّ له قلبي، فبكيتُ، ودخلني الإ سلام) هذه صورةٌ من أثر القرآن في شخصيتين كانتا مخالفتين.. أحدهما إ ستكبر وأبي ولكنه أقرّ بأن هذا الكتاب (سحرٌ يؤثر).. والآخر أخذ القرآن بلُبّه.. فبكى وأ سلم. صورةٌ تو ضّح كيف التقى حديث الإيمان والكفر في أنّ هذا القرآن له سحرٌ وأثر.

2- أثره على أهل الكتاب: يقصُّ القرآن علينا أثر هذا التنزيل على اليهود والنصارى فيقول تعالى جلّ شأنه: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [المائدة]. ويقول القرآن في آية أخرى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الإسراء].

آيات تعكس نوعاً من التأثر الوجداني بهذا التنزيل عند أقوامٍ هم من أهل الكتاب وليسوا مسلمين.

3- أثره على المسلمين:

أشار القرآن إلى ذلك في آيات كثيرة، ومواضع شتّى، نقرأ منها قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ الزمر: ٢٣ .

تأثير غلاّب على كل هذه الأنواع من البشـر (تقشـر الجلود وتلين القلوب)، يسـمعه الذين فيهم بذرة إيمان فيسارعون إلى ساحات الإيمان مذعنين.. ويسمعه الذين يستكبرون ويكابرون فيقرون إنه سحرٌ يؤثر، بل يتناهون عن سماعه خوفاً من تأثيره عليهم قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ فصلت: ٢٦.

وهي حيلة العاجز. واللافت للنظر أن هذا الأثر الكبير للقرآن حدث والقرآن في أوّل عهده لم يكتمل بعد: لم تكتمل أطروحاته للحياة، وتصوّراته، وتوجّهاته الاقتصادية، السياسية، والإجتماعية، بل ولمّا تمض أعوامٌ قلائل على بدية تنزيله.. ولم تَقُمْ للمسلمين شوكة، أو قوّة، أو دولة يُخشى بأسُها وينافقها الناس.إذاً هناك سـحرٌ كامنٌ في قليل القرآن وكثيره.. سِـحرٌ في طبيعته يهزّك، ويملُك عليك لُبّك.

ولأستاذنا مصطفى صادق الرافعي مقالٌ جميلٌ في أثر القرآن وسحره، وذلك في كتابه (وحي القلم) بعنوان (قرآن الفجر)، ولقد كتب المقال قبل وفاته بثلاثة أ شهر وهو يَقُصُّ تجربته وهو صبي صغير اصطحبه والده – وكان قاضياً شرعياً- إلى مسجد دمنهور في مصر ليعكتف الوالد فيه العَشْر الأواخر من رمضـان.. والصـبيُّ معه، والمسـجد قد امتلأ بروّادِ صـلاة الفجر، وانطلق صـوت قارئ يرتِّل القرآن.. يصف شيخنا الرافعي هذه اللحظات بقلمه الأخّاذ

فيقول:" لا أنسى أبداً تلك الساعة ونحن في جو المسجد، والقناديل معلقة كالنجوم في مناطها من الفلك، والناس جالسون عليهم وقارُ أرواحهم ومن حول كل إنسان هدوء قلبه.. لا أنسى أبداً تلك الساعة وقد انبعث في جوّ المسجد صوت غَرِدٌ، رخيم، يَشُقُّ سدفة الليل وهو يرتل هذه الآيات من سورة النحل:-

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ النحل: ١٢٥ - ١٢٨

(وكان القارئ يملك صوته أتمَّ ما يملك ذو الصوت المطْرب، وكان يتصرَّفُ به أحلى ما يتصرف القمريُّ وهو ينوحُ في أنغامه، وبلغ في التطريب كلَّ مبلغٍ يقدر عليه القادر، حتى لا تُفسّـرُ اللذة الموسيقية بأبدعَ مما فسرّها هذا الصوت.

كان صوته على ترتيب عجيب في نغماته يجمع بين قُوّة الرقّة ورقّة القوة، يصيح الصيحة تترجّح في الجوِّ وفي النفس، وتتردّد في المكان وفي القلب ويتحوّل بها الكلام الإلهيُّ إلى شــيء حقيقيٍّ، يلمس الروح فيرفضُّ علها مثل الندى، فإذا هي ترِفُّ رفيفاً، وإذا هي كالزهرة التي مسحها الطَّلُّ..

وسـمعنا القرآن غضّـاً طريّاً كأوّلِ ما نَزَلَ به الوحيُ، فكان هذا الصـوت الجميل يدور في النفس كأنه بعض السِـحرِ الذي يدور في نظام العالم.. وأهتزَّ الزمان والمكان كأنّما تجلى المتكلم- سـبحانه وتعالى- في كلامه، وبدأ الفجر كأنّه واقفٌ يستأذنُ اللهَ أن يضيء من هذا النور..

وكنّا نسـمع قرآن الفجر وكأنما مُحَيْت الدنيا التي في خارج المسـجد، وبَطَلَ باطلُها، فلم يبقَ على الأرضِ إلا الإنسـانية الطاهرة، ومكان العبادة.. وهذه معجزة الروح متى كان الإنسـان في لذّةِ روحه مرتفعاً على طبيعته الأرضية.. أمّا الطفلُ الذي فِيِّ يومئذٍ- يعني نفسه- فكأنّما دُعِيَ لكلِّ ذلك ليحمل هذه الر سالة ويؤديها إلى الرجلَّ الذي يجيُ فيه من بَعْد.. فأنا في كلِّ حالة أخ ضع لهذا الـ صوت: أدعُ إلى سبيل ربِّك، وأنا في كلِّ ضائقة أخ شع لهذا الـ صوت: وأ صبر وما صبرك إلا بالله).. انتهى كلام الأستاذ الرافعي، وهو كلام يتحدث عن نفسه ولا يحتاج إلى تعليق.

يتضـح من كل ذلك أن القرآن له جاذبيته الخاصـة، وهو آسـر، مما يعكس الجمال في القرآن لوناً ... وطعماً... ورائحةً... وفي الصـفحات التالية نسـتعرض نماذج من الوقفات الجمالية في القرآن.. وهذه الوقفات هي جزء من آلية سحر القرآن وجاذبيته.. وسنبدأ بآيات من سورة (ق) كنموذج قرآني لاستصحاب الملحظ الجمالي في الحوار والنقاش حول قضية البعث وقيام الساعة.

و سنبدأ قبل ذلك بتلمس الجوانب الجمالية في ما فرض علينا الإ سلام من عبارات نأخذ نموذجاً سريعاً منها ثم ندلف إلى المشاهد الجمالية فيما طرحه القرآن من قضايا أسا سية تمس الاعتقاد مثل البعث في سورة (ق) وغير ذلك.

الفصل الثاني

مظاهر الجمال في العبادات

بعض المظاهر الجمالية في العبادات

الله جميل يحب الجمال... وخلق كوناً جميلاً متنا سقاً وأر سل ر سلاً.. كان من صفاتهم: الـ صدق والأمانة والتبليغ والفطانة وكانوا جميعاً في أ شكال جميلة مقبولة وكان سيدهم في ذلك ر سول الله ﷺ خَلْقاً وخُلُقاً ليتناغم البرواز والصورة.

والإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه و سلم أعطى الجمال اهتماماً كبيراً.. والعبادات التي أمرنا الله بأدائها والتعبد بها كان الجمال محوراً أساسياً في طريقة أدائها.. ولنأخذ نموذجين من هذه الأركان: الصلاة والحج:

(أ) الصلاة:

هي عماد الدين وسنامه من أقامها فقد أقام الدين ومن تركها فقد هدم الدين، ومظاهر الجمال في هذه الشعيرة كثيرة متعددة منها:

- التجهيزات التي تسبق الصلاة تجهيزات يحوطها الجمال:

- الطهارة: طهارة الماء، طهارة المكان، طهارة البدن.

- الغسل والو ضوء: أمران أسا سيان لأداء الصلاة وهما عمليتا نظافة شاملة كاملة للجسد كله ليتهيأ لكي يقف بين يدي الله.

–

- جمال الثوب الذي يؤدى فيه المسلم الصلاة وطهارته (خذوا زينتكم عند كل مسجد).

- تسوية الصفوف لإقامة الصلاة في شكل مستقيم أنيق والتحريض على النظام الدقيق في الحزية ورص المناكب والأقدام (سووا صفوفكم فإن تسوية الصفوف من تمام الصلاة) وهي مشهد من مشاهد الجمال الراقية.

- جمال الترتيل.. في إمامة الصلاة.. واختيار الأكثر حلاوة في الصوت للقراءة حتى يزين الصلاة بهذا الصـــوت الجميل الغرد ولقد ثمن القرآن حلاوة الصـــوت ونداوته في حق داؤود عليه الســـلام وجعله نعمة من الله تعالى منّ بها على عبده داؤود فقال في حقه (ولقد آتينا داؤود منا فضـــلاً يا جبال أدبي معه والطير وألنا له الحديد) ومزامير داؤود مشهودة في التراث الديني فكان عليه السلام إذا نفخ فيها استجابت لإيقاعه الكائنات من طيرٍ ووحوشٍ وجبل.

ومن هنا اهتم المســـلمون بجمال الترتيل وانشـــأوا له علماً هو علم التجويد. والذي هو تنظيم لسلالم الصوت ومخارج الحروف.

1- مظهر الجمال في حركات الصلاة:

لعلك لو اخترت ركعة واحدة .. ونظرت في تفاصيلها لأدركت عدداً من الإشارات الجمالية والتناسق في تصميم هذه الركعة.

- الوقوف: منتصباً في شكل زاوية قائمة مع الأرض مشدود القيام ثم الهوي باليدين إلى الأمام وأنت تفتح الصلاة بتكبيرة الإحرام هذا تناسق وحركة منظمة.

- الدخول في فاصل للترتيل.. الفاتحة والسورة ... يكسر رتابة الوقوف.

- الركوع: جعل الظهر في حالة زاوية قائمة مع بقية الجسم وكسر الرتابة بالتكبير.. ثم الرفع من الركوع بصورة متناغمة.

- السجود: تعود منطويا.. ساجداً في شكل الحرف Z مقلوب بعد أن كنت سامقاً شامخاً .. وتندرج لتصل إلى هذه المرحلة عبر الركوع.

- الجلوس الأخير: كأنك تلملم أطراف صلاتك في جلسة للتأمل تنهيها بالسلام.

هذه الحركات يتضح من خلالها مهرجان للسلوك الجمالي.. من التناغم والتنسيق والإنسياب في تتابع هذه الحركات.

2- جمال الذكر والذاكرين:

حض القرآن على ذكر الله تعالى.. في آيات كثيرة.. (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات)، والذكر هو ترديد اسـم الله.. في إيقاع متشـابه موحد.. وبأسـمائه الحسـنى.. ويتم مفرداً وجماعياً.. والملحظ الجمالي واضح مشهود في أداء الذكر الوارد في صريح القرآن والسنة (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم).

والذاكرون الله هم يتحاربون مع إيقاع الوجود كله.. فإن الكون كله مسـبح لله تعالى كل بلغته و شفرته الخا صة قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾ الإسراء: ٤٤

وبذلك يكون المـ سبحون الله هم المنـ سجمون مع إيقاع الكون كله.. وهذا مهرجان جمالي كوني.. تعيش فيه كل الكائنات في مشهد من مشاهد الجمال.

ولقد تأ سى أهل الرقائق بهذا المناخ.. فكتبوا أحلى القـ صائد في تمجيد الذات الإلهية والـ شوق إلى الله ومديح ر سول الله ﷺ والتغني بصفاته و شمائله ونشأ فن رفيع شفاف في أدب الرقائق واللطائف العرفانية أثرى ساحة المسلمين بجماليات أخاذة مثل :-

أبداً تَحِنُّ إليكم الأرواح ذكراً هو ريحانها والراح

وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم وإلى لذيذ لقاءكم ترتاح

وارحمتا للعاشقين تحَملوا ستر المحبة والهوى فضّاح

3- مظاهر الجمال في الحج

الحج ركن من أركان الإسـلام وفرض من فرائضـه.. والتأمل في أركانه وشـروطه يجد الملحظ الجمالي يحيط بها.

فالإحرام و شروطه من طهارة وغسل وو ضوء.. وتطيب واختيار اللون الأبيض من الإحرام لأن اللون الأبيض هو أفضل الألوان وفي الخير (أحب الألوان إلى الله البياض).

مشهد هذه الملايين في ملابس الإحرام وهم يطوفون حول الكعبة في شكل دائري أخاذ.. مشهد يملك أحاسيسك.. ومشهد الحجيج وهم فى وادي عرفات... ينتشرون على أرض الوادي...

ومشهدهم وهم يغادرون عرفات ... والتعبير القرآني (فإذا أفضتم من عرفات) الفيضان.. الذي ينحدر.. هذا تعبير موحي بقول الشاعر:

ولما قضينا منسك الحج من منى *** ومَسِّح الأركان من هو ماسح

أخذنا بأطراف الحديث بيننا *** وسالت بأعناق المطي الأباطح

تكاد تلمس الجمال في كل هذه المشاهد.

ولو تتبعت بقية العبادات بلفت نظرك الحسي الجمالي الذي انتظم أداء هذه العبادات.

نستنتج من كل ذلك أن الوجود كله يضح بالجمال، والوجود هو كتاب الله المنشور ولذلك جاء القرآن وهو كتاب الله المسطور ليثمن الجمال المشهود.. في تناغم عجيب لكي يرتفع المسلم بحسه إلى مصاف تذوق هذا الجمال والتفاعل معه.

الفصل الثالث

قضية البعث والملحظ الجمالي نموذج من سورة (ق)

الفصل الثالث

قضية البعث والمحلوظ الجمالي

سورة (ق)

القرآن تناول القضــايا الأســاســية للإيمان، وأكثر من أدلَّة الحوار والاســتشــهاد مع المعاندين والمنكرين، وانفرد بأ سلوبه الخاص في هذا الـشأن. ومن القـضايا التي تناولها القرآن: قـضية البعث وقيام الساعة، فقد شغلت منه صفحاتٌ وآيات كُثُر.. وفي سورة (ق) يتعرَّض لهذه القضيّة .. يطرح حجج المعاندين، ثم يفنّدها واحدة واحدة.. و شاهدنا – لغرض هذا البحث– أنّ القرآن ا ستصحب الحقائق الجماليّة من ضمن ما حشد من دلائل،

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾
أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ﴿٣﴾ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ﴿٤﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ
بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن
فُرُوجٖ ﴿٦﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٧﴾ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ
مُّنِيبٖ ﴿٨﴾ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ
﴿١٠﴾ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ ق: ١ – ١١

هذه السـورة كانت رسـول الله ﷺ يخطب بها الجمعة أحياناً، ولذلك قال الصـحابة رضـوان الله عليهم: حفظناها شفاهة من رسول الله ﷺ لكثرة ما كان يخطب بها الجمعة. وهذه السورة في إطارها العام تُعنى بقضية البعث ويوم القيامة، وتَرُدُّ على الذين ينكرون قيام الساعة، والبعث بعد الموت.

وسنلاحظ أن القرآن يسوق أدلّته لإثبات البعث بطريقة منطقية، منظمّة، متسلسلة وسهلة، تناسب الحسِّ والفطرة.. فهو لا يعمد إلى أُطروحات فلسـفية عميقة، وإنما يلفت النظر إلى ظواهر مألوفة وا ضحة، ولكنَّ الوقوف عندها غير مألوف.. ويحـشد أ صنافاً من الدلائل، ولفت النظر إلى الملحظ الجمالي كأمر قائم بذاته من ضمن ما حـشد من دلائل.. كذلك نُلاحظ هذا النَفَس الطويل والأناة في طرح حُجَّة المعارضـين، ثم هَدمْها واحدةً بعد الأخرى عبر منظومة طويلة من الأدّلة.. ثم يظهر الغرضُ من هذا الحشـد في نهاية المطاف بعد أن يكون المُخاطب قد تهيأ أو امتلأ من الشـواهد، فلا يملك الإنسان إلا أن يسلِّم للأمر.. وهو طرحٌ جديدٌ في وسائل الإقناع.. فلنتأمّل ونتجول في دواخل هذه الآيات.

قَالَ تَعَـالَىٰ: ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ ﴾ ق: ١ - ٥ 1-

في هذا المقطع من السورة يعرض القرآن قضية هؤلاء المعاندين المنكرين للبعث، ويطرح صورة اعترا ضهم كاملة، ويسوق دلائلهم غير منقو صة.. وهي ر سالةٌ لنا في التعامل مع المخالفين. (أءذا متنا وكنا تراباً ذلك رجعٌ بعيد) حجّتهم.. هو تقادم الزمان على هذه الأجساد التي ماتت (رجع بعيد)، ثم يذكر القرآن بأن الأرض قد أنقضت من أجسادهم، وكل كلّ ذلك عند الله محفوظ في كتاب.. ويصفهم القرآن أنّهم في (أمر مريج).. أي مختلط.

2- ثم تبدأ الآيات فتحشد كمية من الأدلة والشواهد على قيام الساعة والبعث في أسلوب جديد، وأ شارت سهلة.. وهو يقدّم نموذجاً أعلى في طرائق الإقناع.. فلم يعمد إلى مقولات فلسفية تغوص بالمستمع والقارئ في تفاصيل علوم الكلام ومغالطته، بل عَمَد إلى صفحة الوجود التي يراها الرجل الأمّي العادي، والعالم المتخصِّص.. قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴾ ق: ٦ السماء فوقنا أمرٌ مألوفٌ محسوسٌ للجميع، ولكن غير المألوف هو التأمّل في هذا السديم الذي يظلّلنا .. والقرآن جاء يحمل رايات التفكُّر والتأملُّ .. عَلَمَّنا كيف (نفكَّك) الظواهر لنصل إلى ما ورائها، فيلفت النظر إلى تفاصيل من وراء هذا السديم المُجمل: قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴾ ق: ٦

سؤال فيه تحريض، ولفت نظر لهؤلاء المخالفين، وللعقل البشري كلِّه من خلالهم.. أفلم ينظروا؟.. والنظر هنا يشمل اللفتة العابرة ويشمل التدقيق والبحث.. يحثُّهُم على أن ينظروا إلى السماء، وهو أمرٌ لا يُكلف شططاً.. عمليّة سهلة، نمارسها يومياً ولا نقف عندها.. والتحريض القرآني هنا يهدف إلى أمرين: النظر.. والتدقيق (كيف).. والأمران هما نواة للعلوم التطبيقية والتجريبية .. ثم يسأل:

*(كيف بنيناها):

السموات.. أهي بنيان؟.. وكيف بُنيتْ؟.. أفْنَتْ البشرية مئات الآلاف من السنين لكي تصل إلى هذه الحقيقة الفلكية، وهي أن السماء بنيانُ متماسك.. ومعلوم أن الكواكب – ومنها كوكب القمر الذي صعدنا عليه– هي مجموعة من الحجارة متراصة في نسق متماسك، فهي إذن بنيان. الأقدمون من المفسرين سلّموا بهذه الحقيقة.. ثم أهتدى العقل البشري إلى إنشاء علم (الفلك)، ورجال في ملكوت السموات.. واكتشف أسرار هذا البنيان مما لا مجال لتفصيله في هذه العجالة.

* (وزيّناها):

أي كيف زينّاها.. والزيّنة هي الجمال والأناقة.. وزينة السماء واضحة في الليالي المظلمة والمقمرة للرائي العادي والرائي الباحث المدقِّق.. والشاهد هنا أن الآية استصحبت (الملحظ الجمالي) من ضمن أدلّتها.

❊(ومالها من فروج):

والفروج: الشقوق المشوهة.. وهذه لفتة للجمال، أي أنها ملساء، لا نتوء فيها ولا شقوق.. في مقطع واحد يسوق القرآن دلالته على قيام الساعة في ثلاثة حقائق: حقيقة فلكية (البنيان).. وحقيقتان جماليتان (زينّاها، وما لها من فروج) ويعني هذا أن اللفتة الجمالية نالت ثلثي الطرح القرآني.. ثم تمضي الآيات تلفت نظر هؤلاء المعاندين إلى عنصر آخر، وكيانٍ واضحٍ وضوء وضوح السماوات.. هي لا تكلّفهم عَنَتَ البحث والأسفار، ولكن تُعلَّمهم التأمل.. السموات..هي لا تكلفهم عنت البحث والأسفار، ولكن تعلمهم التأمل والتفكيك لظواهر هذا الكون، وتنبّه المسلمين من بعدهم.. هي تضع أساساً لعلم تجريبي هو جزء من عبادة المسلم.

3- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ ق: ٧ - ٨ يلفت النظر إلى أمُنا الرؤوم (الأرض) التي نحيا عليها.. ونألفها.. والقرآن يحرِّضهم، ويحرِّض البشرّية، ويحرِّض كافة المسلمين أن يمشوا على الأرض وأمامهم السؤال: (كيف مددناها)؟.

مددناها: المد هو البسط.. أرض مبسوطة أمامك، وهذه حقيقة جغرافية كنتورية.. هذا التمدُّد من المساحات الشاسعة أمام الإنسان مد البصر.. وما بعد البصر هو كذلك حقيقة جمالية..

(وألقينا فيها رواسي): هذه الكرة البيضاوية الشكل.. العائمة في الفضاء.. لها رواسي تتولى وزنها خوفاً من أن تميد بنا (هندسة).. ولاحظ الإشارة القرآنية التي تعكس قوّة القدرة الإلهيّة: تتحدث الآية عن الروا سي الشامخات (الهملايا والأنديز) بعبارة(وألقينا) .. كما يُلقى الرجل حبّة القمح في الأرض.. سبحان الله.

(وأنبتنا فيها من زوج بهيج: عالم النبات .. والخضرة.. والزراعة.. والشاهد هنا (من كل زوجٍ بهيج).. اختار القرآن عبارة (بهيج)..والألوان البهيجة هي الألوان الفاتحة، المفرحة.. وهنا نلحظ أن القرآن حشد الحقيقة الجمالية من ضمن دلالاته التي بدأها بحقيقة كنتورية (مددناها)، ثم عرّج على حقيقة جغرافية (ألقي الرواسي)، ثم تلي بهذه اللفتة إلى مواقع الجمال في الألوان (اللون البهيج).

والطرح مستمرٌ في حشد الدلائل على قيام الساعة والبعث في نَفَسٍ طويلٍ وأناة.. وكل ذلك (تبصرة وذكرى لكل عبد مُنيب)

والتبصرة والتبصُّر هو الصبر على البحث.. ثم هي ذكرى لكل عبد منيب إلى ربه.. وهذا يعني الالتفات إلى هذه المعطيات، والبحث والتنقيب فيها تحت شعار (أنظر.. وكيف) وهي من أكبر المداخل لمعرفة الله تعالى من خلال الكون العريض.. ولذلك حرّض القرآن المسلمين على السير في هذا الطريق..ولقد ابتدر المسلمون في تاريخهم هذا الخط، ولكن قعدَتْ بهم الأيام، ودواعي الانهزام.. ثم تمضي الآيات في حشد هذه الدلائل:

4- قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾ ق: ٩ - ١٠ نحن أمام استعراض لمهرجان الزراعة على هذه الأرض.. وهذه الآيات تحتوي على كل الأصناف التي عرفتها البشرية في فنون الزرع والزراعة، وما يعرف بالتركيبة المحصولية ..

* (ونزلنا من السماء ماءً مباركاً):

البركة تعني تعدد الخصائص.. ويُروَي عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم كانوا يبادرون قطرات الغيث وهي تنزل من السماء، فيمسحون بها وجوههم وأيديهم، ويقولون (هي قريبةُ عهد بربِّها).. وأَثَرُ الغيْثِ كبيرٌ على الأرضِ، والزرعِ والضرعِ، والناس، والبيئة والمزاج.

*(فأنبتْنا به جناتٍ)

والجنّات: هي البساتين بكافة أنواعها وأشكالها، وهي الصنف الأول من الزراعة.

* (وحب الحصيد):

هو الحبوب والغلال بكافة أنواعها.. وهو ما يعرف بالمحاصيل النقدية (قمح، شعير، ذرة، قوار، سمسم... الخ)

والزراعة لم تخرج في نشاطها عن هذين النوعين – بساتين وحبوب.

ثم تختتم الآيات مشـــهد الزراعة فتتحدث عن شـــجرة النخيل حديثاً يجمع بين الحقيقة الزراعية والحقيقة الجمالية.. يتحدث عن عمّتنا النخلة – هذه الشجرة الرؤوم- فيقول تعالى:

*(والنخل باسقات لها طلعٌ نضيد):

والنخل هنا (با سقات) أي طويلات، وليست با سقة، لأن جرس كلمة با سقات يتناغم مع طول النخل.. وهو ملحظ جمالي.. ولو كان كتاب زراعة فقط لاكتفى بالقول أنها نخلة، ولكن يمتد الملحظ الجمالي فيصف النخل بوصفين جميلين:

(باســقات) ثم أنّ لها (طلعٌ نضــيد) .. ونضــيد هو المنضــود المرصــوص في أناقة، وفي وحدات متجانســة.. وتجد ذلك في (الســبيطة) المتدلية من النخلة.. نجد التمر مرصــوصــاً بنظام، وهندام، وتدرُّج يشبه المتواليات الهندسيّة..وهي لفتة جمالية يذكرها القرآن للاستدلال بها في أصعب القضايا (قيام الســاعة والبعث)، ثم يختتم المشــهد القرآني ليبيِّن الغرض من كل هذا المشــوار.. يفاجئ المســتمع في آخر المطاف – وقد امتلأ بهذه اللفتات الكنتورية والهندســية والفلكية والجمالية، وأصبح متعطشاً للنتيجة : (رزقاً للعباد وأحيينا به بلدةً ميتاً كذلك الخروج).

والخروج هو البحث.. وإثباتُ البعث هو المحور الذي قام عليه هذا المشـــوار..وبعد انقطعت أنفاسُـــنا يســـوقنا القرآن إلى هذا المحور عبر دروب طوالٍ، ونُلاحظ أن القرآن اســـتصـــحب الحقيقة الجمالية مثلما اســـتصـــحب الحقائق الأخرى في حشـــد دلائله وبراهينه على قيام الســـاعة، فاللفتة الجمالية لم تكن في هذا الطرح جزءاً هامشياً

وإنما كانت عنصراً مُكمِّلاً لمجموعة الدلائل والشواهد.. وفي ذلك تنبيه للمسلم وارتقاء بحسِّه وفهمه، والتنبيه بأنَّ استقراء الجمال في هذا الكون جزءٌ أساسيٌ من عناصر التعرّف إلى آيات الله تعالى وأبداعه في الوجود..

وهذا النوع من الطرح يكون عوناً للعبد في سيره الدؤُوب إلى الله.. والآية تر سم معالم شخ صية المســـلم الر باني النقّاب المتأمّل.. (انظروا.. كيف) و هما عبار تان تحملان معالماً وفتحاً للعلم التجريبي، ومساقات التأمُّل والبحث.

الفصل الرابع

القرآن وجمال الكون (عالم الدنيا)

الفصل الرابع

القرآن وجمال الكون (عالم الدنيا)

هذا الدين – الإسـلام- هو دين الفطرة.. والفطرة السـويّة غير المشـوّشـة مجبولةٌ على الميل إلى الشيء الجميل، ترتاح إليه وتدندن حوله.

والممالك الأربعة التي يتكوّن منها هذا الكون هي مملكة الإنسان، الحيوان، النبات والجماد، قد أودع الله فيها آيات من الجمال.

وتناول القرآن الحديث عن هذه الممالك من زوايا شتّى حسب سياق الآية والمنا سبة، ولكن لم يغفل الإشارة إلى الملحظ الجمالي فيها.. وسندّلك على ذلك من استعراضنا لعدد من الآيات تكلّمت عن مظاهر هذا الكون الواسع الفسيح، فإلى ساحات كتاب الله نستجلي الوقفات الجمالية للقرآن.

أ.مملكة الإنسان:

هذا الآدمي ..القادم من الجنة.. والنازل إلى الأرض، يقصُّ علينا القرآن رحلته بقوله تعالى: قَالَ تَعَـالَىٰ:﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ص: ٧١ - ٧٢ والمدقق في الآية يجدها تتكلم عن ثلاث مراحل:

أ- خالقٌ بشراً من طين: وهذه مرحلة الخلق، وهي حقيقة علمية.

ب- فإذا سويته: لتسوية تعني (التشطيب) والشكل النهائي، وهنا تكمن اللمسة الجمالية .. في هذه التسوية الجميلة المتناسقة.

ت- ونفخت فيه من روحي: وهي المرحلة الثالثة.

وعودة إلى كلمة (تســوية)، نرى أن الكلمة قد وردت في مواقع أخرى: قال تعالى: (والذي خلقاك فسواك فعدلك * في أي صورة ما شاء ركبك) [الانفطار 7-8]

نفس الإشــارات والمراحل .. خلقك وســوّاك في أحســن صــورة وأكمل تقويم، ولذلك جاءت التسوية بعد رحلة طويلة شاقة، وولادة عسيرة تقصها علينا هذه الآيات: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ المؤمنون: ١٢ - ١٤ هذا الإنسان.. المستقيم القامة، السويُّ.. الأنيق المتناسق.. إذا كشفْت عن مكوناته فستجد أنك أمام مجموعة من الأنسجة والأشكال تَعُجّ بها دواخله (معدة، مصارين، قلب، كبد..ألخ) تمَّ تجميعها.. ثم تمّت تسويته في شكل بشري أنيق متناسق.. ولذلك يقول الحق: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم).. وعندما يقرِّر القرآن أنه (أحسن) فذلك منتهى الكمال والجمال.. وهناك نموذجان:

***الجمال اليوسفي:**

فقد قصّ القرآن قصَّــته في هذه الآيات ليلفت النظر إلى ما أودعه الله في هذا المخلوق الشــاب (يوسف) عليه السلام من الجمال.. يروي القرآن قصة امرأة العزيز مع نساء الطبقة الأرستقراطية من صـويحباتها، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ يوسف: ٣١

كانت حبكة عجيبة من امرأة العزيز حيث أعدّت حفلاً بهيجاً ومُتكأً.. وفي حركة درامية مباغتة أمرت فتاها يوســف أن يخرج عليهنّ.. والمرأة بطبعها تعرف مواقع الجمال وتتذوَّقه.. (فلما رأينه أكبرنه)..ثم لم يكتفين بذلك- وهُنَّ يتناولن قطع الفاكهة والحلوى بالـسكاكين- وإنما شغلهنّ جماله عن الفاكهة فقطعن (بالتشـديد) أيديهن.. واليد عند الحســان من أقيم مواضــع الجمال..أصــابهن الذهول.. فأنظر للقرآن يحكي هذا المشهد، ويعكس أثرالجمال وسحره في النفس البشرية..والأمثلة كثيرة في دنيا الناس.

* **ملامح من الجمال المحمدي**: ولوحة أخرى يتجلى فيها كمال الجمال البشري هو رسول الله (صلى الله عليه و سلم) كما عكستها أم معبد الخزاعية قد مر عليها رسول الله في طريق الهجرة تقول القصة: مر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بخيمة أم معبد الخزاعية وهو في طريقه إلى المدينة في طريق الهجرة قالوا: (وكانت: أم معبد – امرأة برزة جلدة تحتبي بفناء الخيمة ثم تُطعم وتَسقي من مر بها). وبعد قصة طويلة .. أظهر الله المعجزة على يد نبيه بإدرار اللبن من الشاة المقعدة الهزيلة.. جاء زوج أم معبد وتعجب لمشهد اللبن. قالوا: (جاء أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً يتساوَكن هزالاً) فسألها الخبر.. فقالت: (والله لا أدري غير أنه مرّ بنا رجلُ مبارك كان من حديثه كيت وكيت ومن حاله كذا وكذا) فقال لها: صفيه لي يا أم معبد فقالت: (رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة أبلج الوجه، حسن الخَلق، لم تُعِبه نجْلَة ولم تُزريه صَلعْه، وسيَمٌ قسيمٌ، في عينيه دَعَج، وفي أشفّاره وطف، وفي صوته صحل، وفي عنقه سطع، أحور، أكحل، أزج، أقرن شديد سواد الشعر، إذا صمت علاه الوقار، وإن تكلّم علاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد وأحسنهم وأحلاهم من قريب، حُلو المنطق، فصْلٌ لا نزرٌ ولاهزرٌ، كأن منطقه خرزات نُظمن يتحدرن، ربعه لا تقحمه العين من قصر

ولا تنشؤه من طول، غُصنٌ بين غصنين فهو أنضرُ الثلاثة منظراً وأحسنهم قدراً، له رفقاء يُحفّون به، إذا قال استمعوا لقوله وأذا أمر تبادروا لأمره، محفودٌ مشحودٌ، لا عابس ولا منفد.) فقال أبومعبد: (والله هذا صاحب قريش الذي تطلبه ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً). هذه لوحة ترسم معالم من الجمال المحمدي.. والتي لا تتسع مساحة البحث للشرح والتعليق والدندنة حولها.

ب. مملكة الحيوان:

والحيوان.. معروف .. للإنسان.. فيه المألوف والمتوحش وهو ضرورة من ضرورات بقاء النوع الإنساني، واهتم القرآن بذكره.. والذي يلينا في هذا البحث.. اللفتة الجمالية في ذكر تفاصيل هذه المملكة المعطاءة.. والحيوان نعني به كل أصناف الحيوان وشرائحه من بهائم وجوارح وطيور وحشرات.

ولقد بلغ اهتمام اهتمام القرآن بهذه المملكة أن سمي بها سوراً منه (البقرة- الأنعام- النمل- النحل) .. و سنأخذ نماذج من الدلالات القرآنية على الملحظ الجمالي في أطروحات القرآن عن هذه المملكة.

أ) الأنعام:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨ ﴾ النحل: ٥ ـ ٨

تتناول الآيات ظاهرة الأنعام وتعدد الأغراض التي من أجلها خُلقت فتذكر الدفء والمنافع والأكل ثم تعرج على الملحظ الجمالي حيث تذكر (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسـرحون) فيذكرهم القرآن.. بأمر ذي بال.. زيادة على الأكل والمنفعة وإشـباع المعدة فهناك إشـباع للحس.. كأنما يلفت نظرهم إلى هذا النوع من الشبع.. شبع المعاني.. فيرتقي بأذواقهم بل ليلفت نظرنا جميعا بأن العلاقة مع هذا الكون ليست هي علاقة منفعة مادية مباشرة فقط وإنما هناك منافع معنوية.

ثم تمضي الآيات في ذات السياق لتتكلم عن الخيل والبغال كأدوات للتواصل والمواصلات ثم هي من بعد ذلك زينة فيقول الحق سـبحانه (والخيل والبغال والحمير لتكربوها وزينة) ثم يخبرنا (ويخلق ما لا تعلمون) لينفسح المجال أمام مناحي القدرة وإتساعها فالآية تعلمنا كيف نتمكن من الجمع بين المنفعة المادي المنفعة المعنوية .. بين رزق المباني ورزق المعاني..

ويفصّل القرآن أكثر حيث يتناول نوعين من الأنعام .. الإبل والخيل.. فإلى هاتين اللوحتين:

أ) الإبل: من باب حثّ العباد على تتبع آثار الله في خلقه ومخلوقاته وتصــويب نظرهم إلى البحث والتنقيب تأتي هذه الأبيات تســتحث وتســتنفر مشــاعر المســلم بل البشــر جميعهم. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ الغاشية: ١٧ - ٢٠

والشــاهد هنا أنه بدأ بالإبل قبل الســماوات والجبال وقبل الأرض ويبدو أن ما اســتودعه الله من بدائع في خلق هذا المخلوق (الإبل) أبدع مما أودعه في خلق السماوات والجبال والأرض.

الإبل.. معروف.. جمالها وزينتها حتى جعلت العرب يتغنون بذلك ويخلّدون هذا الأمر قال كعب بن زهير يصف الناقة التي يتمنى أن توصله محبوبته:

أمست سعاد بأرض لن يبلغها   إلا العتاق النجيبات المراسيل

* والعتاق النجيبات المراسيل .. هي النوق السريعة النجيبة.

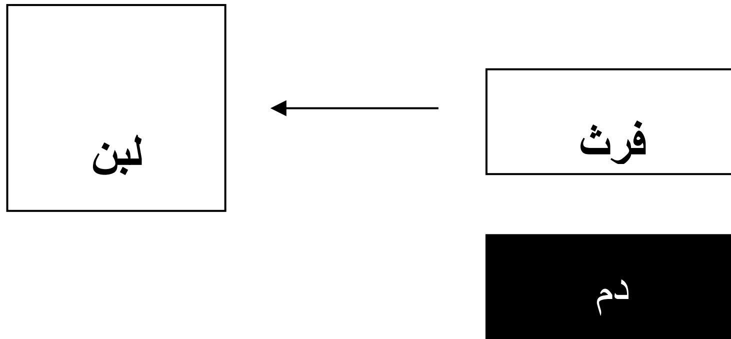
ب) الخيل: وعالم الخيل لا يحتاج إلى إيضاح في مجال قوته وجماله وجلاله ويسوق القرآن مشهد سليمان عليه السلام مع خيله الصافنات الجياد في ملمح جمالي آسر. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ ص: ٢٩ - ٣٣ وسليمان عليه السلام كان محباً للخيل وقد وصفها القرآن (صافنات جياد) والصافنات هي الخيول التي تقف على ثلاثة أرجل وترفع الرابعة دلالة على الفراهة. وقد أنشد الزجاج:

ألف الصُفون فلا يزال كأنه *** مما يقوم على الثلاث كَسيرا

والجياد هي الخيل السريعة السوابق، عرضت على سليمان وهو في صلاته.. فأشار بإدخالها مرابطها ثم أمر بها فجاءت تسعى إليه .. فاهتزّ لجمالها.. وعبر عن محبته لها بأن أخذ يمسح أطراف أعناقها وسيقانها. والملحظ الجمالي متوفر في وصف هذه الصافنات الجياد.. ولقد زخر الأدب العربي بوصف الخيل... وقد ثمن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أخبر بأن الخيل (مقعود الخير بنواصيها) .. ولا ينسى الناس وصف امرء القيس لفرسه العجيبة:

مكر مفر مقبل مدبر معا   كجلمود صخر حطه السيل من عل

ويتحدث القرآن عن مملكة الأنعام أيضاً فيشير قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ **النحل:** ٦٦ واللفتة الجمالية تأتي هنا من زاوية الجمع بين الأضداد Contract (التباين) وهوباب من أبواب الجمال:



اللون: قبيح   اللون: أبيض ناصع

الرائحة: كريهة   الرائحة: طيبة

Contract

وهي عبارة يعلمنا القرآن أن نقف أمامها ونستجلي عظمتها كحقيقة علمية وملحظ جمالي آخاذ.

ب) عالم الطيور:

تتحدث الآيات عن عالم الطيور... وعن الملحظ الجمالي في هذا العالم العجيب:

1- قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ الملك: ١٩

2- أيضاً قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ النور: ٤١ والشكل الذي تعرضه الآيات (صافات) أي باسطات أجنحتهن... شكل جميل... جاذب. ولابد من وقفة في عالم الطير ... مع حشرة نفيسة عجيبة نالت اهتماماً من القرآن وسميت بها سورة (النحل).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ النحل: ٦٨ - ٦٩ هذه الحشرة الصغيرة... العجيبة الصُنع والتركيب...

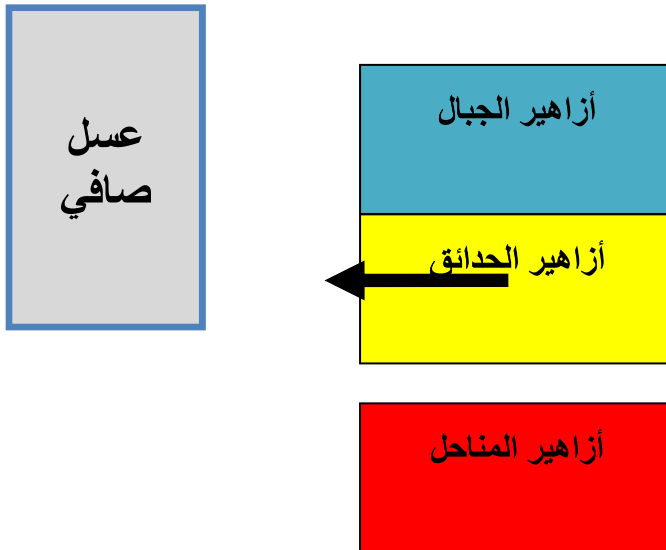
يميزها الله بالاستعداد للتلقي... تلقي التوجيه الرباني... فيرسم لها الحق خارطة طريق... بأن تتخذ من الجبال... ومن الشجر... ومما يعر شون محل سكن لها ومكان... لتكون مصنعاً لعسل حلو طيب... ولقد اتضح بعد ذلك أن جودة العسل بحسب هذا الترتيب في المسكن... فأجوده عسل النحل الذي يتغزى من أزاهير الجبال.. ثم يليه الذي يتغذى من أزاهير الشجر ثم يأتي في المرتبة الثالثة عسل المناحل التي يصنعها البشر.

والملحظ الجمالي هنا مجاله هو التناغم (انظر الشكل في ص 53 Hamony وهو عكس ما لاحظناه في صناعة اللبن والذي كان من بين فرث ودم.

أما هنا فنحن أمام معادلة أخرى يتضح الجمال فيها من باب التناغم فالنحل هنا يسكن الحدائق والغابات ما بين الأزاهير والرياض والفيحاء... ثم يُخرج هذا السائل الحلو الجذاب وملحظ جمالي آخر تشير إليه الآية (يخرج من بُطونها شرابٌ مختلف ألوانه)

فالعسل أبيض... أسود... وأنواع كثيرة ... ثم هو من بعد ذلك شفاء للناس... لكل الناس... فانظر كيف تجمع الآيات بين المنفعة الحسية والمنفعة المعنوية.

***



Harmony

ج. مملكة النبات:

الحديث عن الزراعة والنبات حديثٌ واسع في القرآن، تناولته آياتٌ كُثر، وكلُّها جمعت بين الحقيقة الزراعية واللفتة الجمالية.. ونعرض هنا بعض النماذج والتعليق عليها في اختصار:

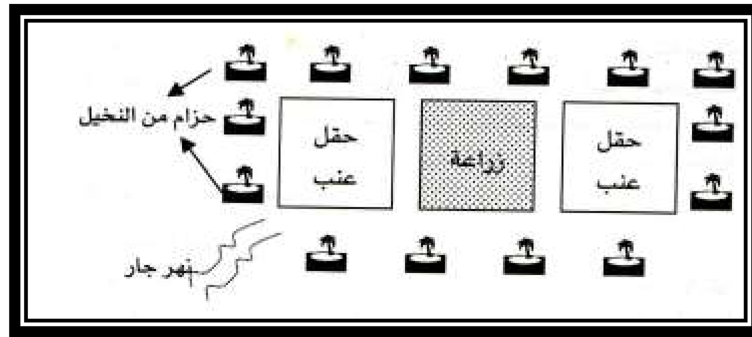
أ. قَالَ تعَالَىٰ:﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾
يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ النحل: ١٠ - ١١ شكل الماء وهو نازل... ومشهد الشجر... والمرعى (تُسيمون).. وثمار النخيل والأعناب- كلها لفتات جمالية.

ب. **قال تعالى:** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ الأنعـام: ٩٩ هذه الآيات تعدد وتصف التركيبة المحصولية التي تنتج عن اختلاط الماء بالأرض.. [أخرجنا به نبات كل شيء] .. وهي الحقيقة العامّة الأساسية .. ثم تُفصِل الآيات، وتتناول الخضرة (خضراً) .. والحب المتراكب الذي يخرج من الخضرة.. والمتراكب المتراص.. وهو يأخذ أشكالاً هندسية مُنتظمة، ويعكس جمالاً... ثم تتحدث الآية عن النخيل وطلعه.. (قنوان دانية).. عزق دان متدل.. والزيتون والرمان (متشابه وغير متشابه) .. ثم يلفت القرآن النظر إلى شكل اللوحة كله: (انظروا إلى ثمره إذا أثمر).. وكذلك أنظروا إليه حين يكتمل نضجه (ينعه).. كلا الحالتين أخّاذة جذابة.. شكل الثمار في الشجر في بداياتها، وشكلها وقد أينعت.. والصور المتشابهة والمتباينة..

إنها وقفات تجمع بين الحقيقة الزراعية والحقيقة الجمالية، وتحثك على أن ترسل الطرف بعيداً وتتأمل.

ج. وهناك لوحة موحية ترسمها آيات في سورة الكهف لحديقة مثالية، بها كل مقومات الزراعة الناجحة .. إنها تضع خارطة لشكل الزراعة، فتعطيك إرشاداً زراعياً يجمع بين تركيبة محصولية ناجحة، ولفتة جمالية آسرة.. قَالَ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ الكهف: ٣٢ - ٣٤

ولتقريب الصورة يمكننا مطالعة هذه الخريطة:



وبعد ذلك كله [فجرنا خلالهما نهراً]..

وللزراعيين حديثٌ طويل في هذه الخرطية المثالية للزراعة.. دلّت أبحاثهم على أن الزراعة بهذا الشكل تعطيك أعلى نسبة من الحصاد في العنب والنخيل والزراعة (آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً)..

إنها وقفات من الإرشـــاد الزراعي، ثم هي بعد ذلك لوحةٌ جماليةٌ جاذبة.. فالخضـــرة انتشـــرت، وأخذت أشكالاً مختلفة، والثمار تنوّعت نم أرضٍ واحدةٍ وماء واحد..

والنماذج للإشارات القرآنية في مجال الزراعة واللفتات الجميلة كثيرة.

د. مملكة الجمادات:

وهذه المملكة.. تتجلى في أكبر مظاهرها في عالم الأرض وعالم الســماوات، والقرآن تناول هذه المملكة بإفا ضة كثيرة ومن زوايا شتى. تحدث عن السماوات والأرض.. ولغرض هذا البحث فأنا سـنجتزئ جزئاً يسـيراً مما ذكره القرآن وندلل من خلاله على اهتمام القرآن بالملحظ الجمالي في هذا الكون الفسيح الجميل.

عالم الأرض:

الأرض هي الأم الرءوم والتي وصــفها الحق ســبحانه بقوله (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى). وهي بهذا محور حركة هؤلاء الآدميين.. منها جاءوا.. وعلى ظهرها يدّبون ويعيشـــون.. وإليها يعيدون كما جاءوا. لذلك حظيت الأرض باهتمام فائق في كتاب الله تعالى وتنوع الطرح القرآني وهو يتناول هذا الجسم العجيب ولأننا بصدد تتبع الإ شارات الجمالية في القرآن عن الأرض فسنقف أمام بعض المشاهد:

أ) ماعلى الأرض:

يتحدث القرآن عن المخلوقات التي خلقها الله وجعلها على ظهر هذه الأرض قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ الكهف: ٧ والحق سبحانه يمنُّ علينا بأنه جعل ما على ظهر هذه البسيطة (زينة لها) حتى يسهل الاستقرار عليها.. ويحلو العيش فيها وتقوم حركة التنمية وتتدافع الحركة الحضارية.. ويتضح بعد ذلك ... فصائل الأخيار من الأشرار ويقرر القرآن .. أن هذه الزينة من أهم دوافع التدافع الحضاري وحركة الحياة.

ب) شكل الأرض:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ النازعات: ٣٠ - ٣٣

والدحو في اللغة هو الشكل البيضاوي المفلطح.. وهي الكلمة الوحيدة في قاموس اللغة العربية التي تصف شكل الأرض وصفاً دقيقاً.

وهذا الشكل البيضاوي المفلطح شكل جميل... إذ ليست فيه رتابة الشكل الدائري الذي يسير على نسق واحد... وهو شكل فيه نفس من أنفاس الجمال.

ثم تم ضي الآيات فتذكر أن الله سبحانه قد أخرج من باطن هذه الأرض... الماء والمرعى... ثم أرســى عليها الجبال... شــكّل ظهرها بمتحركات (ماء + مرعى) ... وثوابت (جبال) وذلك ملمح جمالي لمن رزق عمق النظر.

ج. الأرض الفراش والمهاد:

أشــار القرآن إلى أن الله جلت قدرته... قد فرش الأرض ومهّدها... جعلها مهداً... أشــبه بمهد الطفل الرضيع، راحة وأناقة.

1) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ الذاريات: ٤٨

2) وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ الزخرف: ١٠

3) وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ ﴾ النبأ: ٦

واختبار مفردات (االمهد) والذي هو مكان الطفل الرضـيع... لُيكنَّه من البرد والحر... ووصف الأرض هنا هو اختيار ملئ بأنفاس الجمال وكذلك كلمة فرشــناها... والفرش هو بســط الثياب الأنيقة (وفرش مرفوعة).

د. الأرض والزراعة:

شـــكل الأرض وهو مُغبَّرة (كاكية اللون) قاحلة طاردة ثم ينزل الله عليها الغيث... فتتغير الصورة... فتتحول إلى خضراء يانعة جاذبة أنيقة... يسجل القرآن هذا التحول في شكل الأرض في إشـــارة قوية في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾ الحج: ٥ - ٦ موات يتحول إلى حياة ... وحركة... واخضرار... وألوان بهيجة... تسرّ النظر... وتجلب العافية ... وتبارك في العمر.

يتكرر المشـــهد القرآني كما ســبق ذكره في ســورة (ق) فيســـوق القرآن الدلالة على البعث وهو يســتصــحب ظاهرةً تتكرر موســمياً بين الناس... في بواديهم وأريافهم... عودة الحياة إلى الأرض ويذكرهم بأن ذلك يشــبه عودة الحياة إلى أجســامهم بعد أن تفنى. ويلفت القرآن النظر إلى الملحظ الجمالي وهو يسوق الدلائل على هذه القضية (من كل زوج بهيج).

هـ. الأرض والجبال:

الجبال من مكونات هذه الأرض والقرآن تناول هذه الكتل الراسيات وعبر عن الملحظ الجمالي أيضاً فيها... ونكتفي بهذه الآيات وهي تعدد ألوان الجبال:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ فاطر: ٢٧ هذه التشكيلة من الألوان والتي لفت القرآن النظر إليها فيها مسحة من جمال فهناك لون أبيض وأسود... ثم لون أحمر.

و. الأرض والبحار:

عالم الماء.. عالم زاخر... والقرآن تحدّث عن الماء بصورة متدفقة وموضوع (الماء والقرآن) يحتاج إلى بحث مفرد له... ولكني اجتزئ بعض المشاهد التي تناولت عالم البحار وألمحت إلى الملحظ الجمالي فيه:

1. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ النحل: ١٤

2. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ فاطر: ١٢

واللوحتان تتحدثان عن عالم البحر تعددان منافعهما... وسنلاحظ أن المنافع مادية ملموسة وذوقية محسوسة:

1- تأكلون لحماً طرياً: وأكل اللحم معروف... ولكن أن يكون اللحم (طري) فهذه متعة ... والمتعة باب من أبواب الجمال.

2- تستخرجون حلية تلبسونها: والحلية هي ما يتحلى به الإنسان إذ ليس الغرض اللباس وحده... وإنما هناك غرض آخر هو التزين... والحلية... فهو من مراد لذاته... كأنما اللفتة القرآنية تنبهك إلى الجمع بين منفعة اللباس وأناقة اللبس.

3- وترى الفلك فيه مواخر: شكل السفن وهي تمخر عباب البحر... تعلو وتنخفض... والناظر إليها من بعيد يحس بقبس من جمال.

د) السماوات والزينة:

الحديث عن السماوات أيضاً نتناول جانب الزينة فيها قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ ﴾ الصافات: ٦ وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾ الملك: ٥ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ الحجر: ١٦ وهي إشارات جمالية لا تحتاج إلى شرح فمشهد السماء الزرقاء... وقد أوغل الليل وتلألأت في وسطها النجوم ... والكواكب... مشهد آسر للغاية فالجمع بين الزرقة والبياض... وبين سكون السماء وحركة النجوم وتلألؤها هو باب من أبواب الجمال.

بقيت كلمة أخيرة ونحن نلملم أطراف هذا الفصل.. كلمة عن الزينة في القرآن والتزّين.. ومعلوم أن الزينة هي من آليات الجمال، بل من أهم معالم معالم الأشياء، ولذلك أشار إليها القرآن في عدة مواضع..

أ. في سورة الكهف ورد قوله تعالى:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ الكهف: ٤٦ فهو يقرر أنّ هناك عنصرين من أهم عناصر الزينة في الحياة، ثم يوجِّهنا إلى ترتيب أولوياتنا بالباقيات الصالحات..

ب. وفي لمحة أخرى للفت النظر إلى الاستمتاع بهذه الزينة، وشكر الله عليها يقول الحق:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ الأعراف: ٣٢ فالزينة هنا ينسبها الله إليه تكريماً واهتماماً (زينة الله)، ويحضّنا على استعمالها.. وكذلك (الطيبات) من الرزق.. و(طيبات) تحمل أكثر من معنى: الشكل.. والفائدة...والجمال.

ج. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ الأعراف: ٢٦

الإشارة هنا إلى اللباس ليواري السوءة ثم إلى (الريش) ليتم التزين به.. فهو تعالى قد أنزل لباساً وأنزل ريشاً والملمح الجمالي هو الحديث عن الريش.

د. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ الأعراف: ٣١

إرتقاء بحس المسلم وهو يمارس صلاته، ويعمر المساجد هذا كله في الزينة الحسيّة.. ويتناول القرآن زينة الأرواح (الزينة المعنوية) فيحكي حال المؤمنين و قد ملأ الإيمان قلوبهم وتلذذوا به، فيقول سبحانه:

هـــ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ ﴾ الحجرات: ٧

فعبارات حبّب وزيّن تعكسان معانٍ رائعات، زائنات، مائسات.. وتشير إلى الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب، فهو محبوب مزين ليرتبط به القلب أكثر... لا ينفك عن العبد أبداً، وأنّى له أن ينفكَّ وقد انطبع بطابع الحب والزينة.

و. وهناك حديثٌ أثير عندي يروى عن رسول الله ﷺ، يعكس قدراته العجيبة، وحسّه العالي (صلى الله عليه وسلم) قال عليه السلام: (حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة).

هذا حديث شريف .. نفيس.. فسيد الأولين والآخرين يكا شفنا في و ضوح – وهو سيّد البشر– بأنه قد حُبِّب إليه في هذه الدنيا أمران.. والأمران دلالة أناقة ولطف وجمال.

* الطيب: الرائحة الطيبة الزكية.. قالت عائشة رضي الله عنها: (كان عليه السلام يكره الرائحة النتنّة) وقد وردت أحاديث شتى في استعماله الطيّب وتخيُّره له، ومعرفته به.

* والنساء: هذا ميلٌ طبيعيٌ في الفطرة البشرية أن يَحِنّ الذكور إلى الإناث، بل هي ظاهرة كونية في كل المخلوقات فلا يتردد عليه السلام أن يعلنها واضحة لأن هذا الدين دين فطرة... والذي قال هذه العبارة هو نبيّ الله ورسوله، ورأس الدولة.. وقالها في مجتمع كان يَئِد المرأة ويحتقرها..

والعباراتان (الطِّيب والنساء) تعكسان شخصيته الفذّة، وحسِّه الجمالي العالي.. ولكنه في ذات الوقت يعلن ترتيب أولولياته: (جعلت قرة عيني في الصلاة).. فهو ليس ضعيفاً ولافاقد الذوق أو فقير المشاعر، حا شا لخاتم الأنبياء، ولكنّه يتميّز بفيض من المشاعر، وقوة بدنية، وإحساس غزير، ومع ذلك كله يقتضي مقامه أن يرتفع همُّه إلى مراقي أكبر (جعلت قرة عيني في الصلاة).. حتى كان ينادي بلالاً (أرحنا بها يابلال) يعني أرحنا بالصلاة.

يمارس كلا الأمرين – الطيب والنساء – في إحساس غني كامل، وفي حدود المشروع، ثم يرتقي إلى آفاق الصلاة، والعبودية لله (صلى الله عليه وسلم).

الفصل الخامس القرآن وخضراء الجنة (عالم الآخرة)

نموذج سورة الواقعة نموذج سورة الطور

الفصل الخامس

القرآن وخضراء الجنة (عالم الآخرة)

فيما سبق من صفحات أردنا الحديث عن الوقفيات الجمالية للقرآن فيما يخص الكون والحياة الدنيا.. مظاهر من الحياة المُتشعَّبة.. ولمسنا إبراز القرآن للملحظ الجمالي فيها حتى يسوقنا إلى أن نمشي في مناكبها، ونبتغي من فضل الله، ونُثري حركة التنمية والحركة الحضارية..

وسنتابع مسيرة القرآن مع الجمال وهو يتناول عالم الآخرة.. وعلى وجه الخصوص عالم الجنان..

والقرآن يعرض صور عالم الجنة في أداءٍ رفيع ونسقٍ عجيب.. يشوّقك ويستفزّك ويشُدك إلى خضراء الجنة .. كل ذلك لكي يحشد الطاقات البشرية إلى السير في الطريق الذي يقودهم إلى الجنة.. فيرشِّدون حياتهم ويرتقون بها إلى مصاف أهل الهِمم.. والربانيين..

وتكاد اللفتة الجمالية في استعراض الجنة هي اللفتة الحاكمة.. وهي التي يدور عليها محور الإبداع والجذب.. وكل مشاهد الجنة في القرآن يَغلُب عليها حسِّ الجمال ومعاني الجمال، وهي كثيرة، والقرآن تناول الحديث عن الجنة من زوايا مختلفة، ورؤى متعددة لا مجال لإحصائها في هذه العجالة، ولكن نختار منها مايفي بغرضنا:

(أ) نموذج سورة الواقعة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾
وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ
ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾
يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا
يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾
لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ
﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾
وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ الواقعة: ١ - ٤٠

الواقعة هي القيامة.. واليوم الآخر.. يوم النتائج والوضوح.. وهو يوم تتضح فيه حقائق الأشياء.. وتنفضح الكثير من الأكاذيب والرؤى والمعايير المغلوطة.. يوم انقلاب كل شيء.. خافضةٌ.. رافعةٌ.. (إذا رجت الجبال رجا وبست الجبال بساً فكانت هباء منبثا).

ثم يقسم القرآن الناس يؤمئذٍ إلى ثلاث فرق:

- أصحاب الميمنة.
- أصحاب المشئمة.
- والسابقون.

ثم تفصِّل الآيات في موا صفات كل فرقة.. وما أعدَّ الله لها من الجزاء خيراً أو شراً. ولغرض هذا البحث- ولأننا معنيُّون بالملحظ الجمالي في الطرح القرآني- فسنصحب القرأت في كلامه عن السابقين، ثم أصحاب اليمين، ونتلمس مواضع الجمال في هذا الوصف الآسر الجاذب الذي يلفت النظر لمواقع الجمال.. ويرتقي بحسه وذوقه.. في أناقة وطرح حضاري عديم المثال، فماذا تقول اللوحتان؟؟

*اللوحة الأولى: السابقون: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ الواقعة: ١٠ - ١٤

هذه مقدِّمة تعريفية تتحدث عن هؤلاء السابقين.. والسبق هنا سبقٌ تاريخيٌّ، و سبقٌ في العزائم.. لأن الذين بادروا بالا ستجابة لهذه الدعوة ساعة العُسرة هم الذين و ضعوا اللِّبنات والأ ساس لهذا الصرح الضخم (حركة الإسلام)، فهم خليقون بالتكريم، ويشمل ذلك السابقين في كل زمان

ومكان، الذين ينهضــون بهذه الدعوة، ويبتدرون حركة الإصــلاح، واســتنهاض الهمم ســاعات الفتور والانهزام بنسب متفاوتة (أولئك المقربون).. مقرَّبون من الله تعالى لسلوكهم النادر هذا وهم (ثلةٌ من الأولين وقليلٌ من الآخرين) .. كان سيِّدنا عبدالله بن عباس يقول:

(أرجو أن يكونوا كلهُم من هذه الأمة) الأولون مِنّا، والآخرون مِنَّا .. وما ذلك على الله بعزيز.

ثم تبدأ الآيات في عرض لوحة زاهية تتجلّى فيها الحفاوة والتكريم والخدمة على النحو التالي:

1- (على سُرُرٍ موضونة):

سُــرُر جمع ســرير.. والأسِــرّة هذه (موضــونة) مرصّــعة بالمعادن النفيســة .. فهي أنيقة مذهَّبة.. يدخلون الجنة، فيبدأ برنامج الضيافة بهذه الإسِرّة النفسية .. يجلسون عليها..

والسرير يؤدي أكثر من وظيفة: الجلوس والإتكاءة والنوم.. وهذه متطلبّات الراحة عند الآدميين.

2- (متكئين عليها متقابلين):

والتقابل يقتضــي أن تكون الأسِــرّة في شــكل دائري.. والشــكل الدائري يحمل معاني الحفاوة والاهتمام والتركيز.. هو وضــع هندســي لائق للمســامرة الحميمة.. وهم قبل ذلك (متكئون)، والإتكاءة هي أحسن وضع للإنسان وهو يقظٌ..

فهو لو رقد لكان هناك مظنة فتور وتعب. ولو انتصب قاعداً 90درجة) لكان هناك مظنَّة قلق وجديّة .. أما الإتكاءة 45 درجة) فهي وضعٌ موغل في الراحة والاستروواح، وهو أول أدب من آداب الضيافة.. أن تريِّح ضيفك من حيث شكل الجلوس.

3- (يطوف عليهم ولدان مخلدون):

هذا تسلسل جميل، و صورة حية أنيقة، نسوقها للذين يهتمون بفنون الفندقة وأدب الضيافة.. بعد أن استقروا على أسرّتهم تبدأ الخدمة.. وهي خدمة ذات مواصفات عالية، فهي خدمة مستمرة (يطوف) .. والطواف يعني الخدمة المتوا صلة.. تُلبِّي طلبات الضيف بمجرد إلتفاته منه أو إ شارة.. والذين يقومون بالخدمة يجب أن يكونوا في ذات القامة من التنسيق والأناقة.. (ولدان مخلدون) .. فهم ولدان..صبيان..في غاية الحسن والأناقة.. وهم خالدون.. لا يهرمون ولا يشيخون..

ثم تمضي الآيات تُفصِّل نوع المأكول والمشروب الذي يقدِّمونه، فتبدأ باللذيذ من الشراب..

4- (بأكواب وأباريق وكأسٍ من معين):

أكواب أنيقات.. وأباريق تحمل المشروب، يُسكب منها في هذه الأكواب بقدر ما يُحب الضيف.. ثم كأس ملآي من معين خمر صافية.. فهذا نوعان من الشراب: شرابٌ تأخذ منه القدر الذي تريد (أكواب وأباريق)، ونوعٌ جاهز ملئ (كأس) .. هذه هي ضربة البداية .. نظامٌ في شكل المجلس، ولذاذة في المشروب، وأناقة في الذين يقومون بهذه الخدمة..

5- (لايصدعون عنها ولاينزفون):

الشـراب والمجلس خاليان من أيّ أسـباب للكدر والقلق، فلا صـداع. ولاهمّ ينغص عليهم لذة الشعور بهذا النعيم.. همهم مجموع.. ثم يمضي تسلسل النعم إلى نوع آخر:

6- (وفاكهة مما يتخيَّرون):

تأتي الفاكهة سابقة للطعام.. تفتح الشهيّة.. والإشارة واضحة لمظهر الكرم (مما يتخيرون).. يؤتي لهم بقائمة من أنواع الفاكهة، فيتخيرون.. وفي الخبر أن رسول الله (صلى الله عليه و سلم) (كان يأكل في الطعام مما يليه، فإذا جيء له بالفاكهة جالت يده الشريفة)..

7- (ولحم طير مما يشتهون):

ثم يأتي اللحم بعد أن يكون الإنسـان قد فُتحت شـهيّته بالفواكه.. وهذه أحدث النظريات في فنون الفندقة .. واللحم هنا لحم طير.. سـهلُ الهضـمِ. جميلٌ.. ومرتبط بالاشـتهاء، والفاكهة مربوطة بالاختيار..

ثم تختتم مظاهر الحفاوة بنوعٍ آخر من الملذَّات..

8- (وحُورٌ عِينٌ كأمثالِ اللؤلؤ المكنون)

حورٌ عِينٌ.. مثل اللؤلؤ المكنون.. المحفوظ.. لم يمســهُنَّ إنسٌ قبلهم ولا جان.. مبالغة في الخصوصية.. تُتَوَّج ملذات الشراب والأكل بملذَّات المُسامرة مع الحُور العين، والعُرسِ الدائم.

9- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴿٢٦﴾ ﴾ الواقعة: ٢٤ - ٢٦ كل هذه الصور جزاءً على أعمالهم وصبرهم في الدنيا.. وابتغاءهم مرضاة الله رغم العنت والعناء.. والعبارة فيها لمسة وفاء (وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان)، ثم يصف القرآن بيئة الجنّة ومناخها، فهو مناخٌ غرِدٌ رخيم.. لا يُسمع فيه لغوٌ ولا تأثيم، وإنّما هو سلامٌ في سلام.. هي صورة مهداة لنا في عالم يفتقر إلى السلام والأمان..

ويُسدل الستار على هذا المشهد الجمالي الفريد وقد لفت القرآن نظر البشرية ونظر المسلمين إلى نوعٍ من أنواع الجمال، وعَرَض لوحةً يرتقي فيها بِحسّ المسلم ليضع لبنةً لما يُعرف بفنِ الضيافة والفندقة، ويُحثنا جميعاً للاجتهاد واللحاق بركب هؤلاء السابقين.. واللوحة أشبه بدعوة احتفال في قصر فخيم.. كلّها أناقة، وكلّها سلوك حضاري أخّاذ.

ثم تُطوى الصفحة لتستعرض صورةً أخرى تخُصُّ أصحاب اليمين، والذين هم أقلّ درجة من هؤلاء السابقين، وسنلاحظ الفوارق بين السابقين وأصحاب اليمين في نوع الجزاء..

وحتى في اختيار الكلمات وجرسها..قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ الواقعة: ٢٧ - ٤٠

1- (أصحاب اليمين ما أصحاب اليمين)

سؤال للفخامة والاهتمام.. وتعجب وتشويق للقارئ، ثم تبدأ الآيات فتُفصِّل.. وسنرى أن اللوحة التالية تعكس صوراً من الجمال أخرى.. لها طعمها الخاص.. فيها جمالٌ يحملُ روائع البداوة والرّيف.. والمشهد أقرب إلى رحلة في واد مترع مُخضرّ.. بإستراحاته.. وحدائقه.. وولائده العرابيب يزاح الستار عن هذه المشاهد:

2- (في سدر مخضود):

السدر هو شجر النبق على الأرجح، وهو شجر يتميز بأنه وارف الظل كثيف.. وهو سدر لا شوك فيه..

3- (وطلح منضود)

والطلح على الأرجح هو ثمر (الموز) ذو العناقيد المرصوصة المنضّدة في شكلٍ هندسي أخاذ..

4- (وظل ممدود)

ظل كثيف .. ممتد، لا تمحوه الشـمس ولا ينحسـر.. فهو ظل دائم، وبالطبع هو أحلى وأرقى من ذلك الوادي من أودية الدنيا التي وصفها الشاعر حين قال:

نزلنا دوحة فحنا علينا　　حنو المرضعات على الفطيم

وأرشفنا على ظمأ ذلالاً　　ألذ من المدامة للنديم

يصدُّ الشمس أني واجهتنا　　فيحجبها ويأذن للنسيم

5-(ماء مسكوب)

ماء متدفق .. والماء المتدفق يروي، ويملأ الحس جمالاً.. إذ هو رقراق مسكوب..

6- (وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة)

فاكهة كثيرة متنوعة .. وغير منقطعة، فهي ليست موسمية.

7- (وفرش مرفوعة)

فرش مرفوعة على مستوى الأرض، مميزة، تدعو أصحاب اليمين لإتخاذ أماكنهم وأركانهم.. وهي لوحة مليئة بجمال البداوة، وألق البساطة مقارنة بحال (السابقين) حيث الجمال الحضري، المنمق..

8- قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ﴾ الواقعة: ٣٥ - ٣٨

الإنشاء يعني الخلق الجديد.. فالحور هنا أنشئن خصيصاً لأصحاب اليمين.. وهنّ أبكار.. وعرباً أتراباً: والعُرُبُ جمع عَروب، وهي المرأة صاحبة العفة، والحبيبة الودودة إلى زوجها، تمنحه الحب الخالص، هي غنية المشاعر.. تبادلة وداً بود، ووفاء بوفاء.. وهي أعلى قيم الاستقرار والهناء النفسي.

ثم يختتم المشهد بقوله تعالى: (ثلة من الأولين* وثلة من الآخرين)

ويتضح لنا من الصّور واللوحات التي رسمتها سورة الواقعة أننا أمام كتاب يتناول الصور الجمالية في أعلى قمتها، ويعرضها على مشاهد أخاذة.. كل ذلك لكي يحرِّض المؤمنين على السير في سبيل الله إلى آفاق الجمال، فيتأسُّوا بالقرآن، ويجعلون حياتهم جميلة، أنيقة، منظمة، وذات نسق. ومن خلال هذا النسق يعرفون ربهم ويثرون حياتهم بكل جميلٍ وأنيق، يتأسون بكتاب ربهم وهديه لهم.

ب- لفتات من سورة الطور:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ الطور: ١٧ - ٢٨

شرح بعض المفردات:

قال الراغب في مفردات القرآن:

❋فاكهين: الفاكهة هي حديث ذوي الأنس.

❋ وكقوله (فظلتم تفكَّهون) قيل تتعاطون الفاكهة، وقيل تتناولون الفاكهة.

❋ وكذلك قوله (فاكيهن بما أتاهم ربُّهم) أي مســتمتعون فاكهون بما آتاهم ربهم، قال ابن عطية (فرحين مسرورين)..

* سُرر مصفوفة: جمع سرير.. في صفوف.

* حور: الحور جمع حوراء، وهي الشديدة بياض مقلة العين في شدة سواد الحدقة..

* عين: جمع عيناء، وهي العظيمة العين في حُسن وسعه..

* ألتناهم: أنقصناهم.

* اللغو: ساقط الكلام.

* تأثيم: الإثم.

* يتنازعون: أي يتعاطون.. ويتشاركون.

الآيات تحكي صوراً من صور التكريم.. وتضع بين يدينا وصفاً لهذا التكريم وأنواعه وأشكاله.. والملحظ الجمالي هو سيّد الموقف في كل هذه المواصفات.. نحن الآن في خضراء الجنة- جعلني الله وإياك من أهلها- والآيات تصور ما بداخل الجنة:

1- يبدأ المقطع الأول بقوله تعالى (إن المتقين في جنات وعيون)

الجنّة هي كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض.. هي الحديقة المتكاملة.. النعمة: الحالة الحسنة، والنعيم النعمة الكثيرة.

هؤلاء المتقون منّ الله عليم بنوعين من التكريم.. حسِّي ومعنويّ.. فهم يعيشون في داخل الجنات بخيرها، وأنهارها، وفواكهها، وهذا جانب محسوس.. ثم هي في نعيم، في حالة طيبة، وا ستعدادات نفسية عالية.. وتمضي الآيات:

2- (فاكهين بما أتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم)

هم داخل الجنة.. فاكهون، يستمتعون، في كامل صحتهم النفسية والجسدية لاعتدال المزاج مما يُمكنّهم من التمتُّع لأقصى درجة.. لأنك أحياناً تتاح لك الإمكانيات لتعيش في نعيمٍ، ثم يحول بينك وبين التمتع بهذا النعيم منغصِّات نفسية أو جسدية.. فهؤلاء المتقون داخل الجنة لهم القدرة الكاملة على الاستمتاع بما آتاهم ربهم، ولعل كلمة (رب) هنا فيه إشارة إلى العناية بهم، وكذلك هذه الإضافة الحانية (ربهم).. وأوضحت الآية أن الله قد وقاهم عذاب الجحيم، ثم يمضي مشوار التكريم وجماله:

3- (كلوا وأشربوا هنيئاً بما كنتم تعلمون)

فهم ينادون، ويدعون إلى تناول طعامهم وشرابهم دعوة فيها حفاوة، وفيها أناقة، وهذا أدب الضيافة.. كلوا هنيئاً واشربوا هنيئاً.. قال الآخر:

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامر لعزة من أعراضنا ما أستحلّت

4- (متكئين على سرر مصفوفة)

سُرر: جمع سرير، وهي مرصوصة مصفوفة.. منظمة وأنيقة.. وهم متكئون عليها، والإتكاءة – كما أسلفنا- أكثر وضع مريح للإنسان وهو يقظ، والمشهد فيه نفس من أنفاس الجمال ..

5- (وزوجناهم بحور عين):

بعد تناول الطعام والشــراب تمت لهم لذاذات أخرى ليكتمل ســرورهم.. وهو الزواج بالحور العين.. والحور العين – كما هو وارد- قمة من قمم الجمال المشهود..

ثم تعمد الآيات إلى ذكر نوع آخر من الجزاء فيه وفاء وعرفان:

(والذين آمنوا وأتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء)

زيادة في الحفاوة والتكريم يُمنّ الله على هؤلاء المتقين، فيرفع ذرياتهم إلى مصافّهم في النعيم وإن لم يصــلوا ذلك المســتوى.. شــريطة أن يكونوا مؤمنين، أو بمعنى آخر: حصــلوا على درجة النجاح 50٪) (وأتبعتهم ذريتهم بإيمان)،(ألحقنا بهم)، والإلحاق يعني أنهم كانوا دون آبائهم، تطييباً لخواطر هؤلاء المتقين، من غير أن تنقص من حال المؤمنين أو درجتهم، ثم تعود الآية إلى تفصــيل المحسوس من النعيم:

7- (وأمدادنهم بفاكهة ولحم مما يشتهون)

والمدد هو التواصل والخدمة المستمرة من اللحم والفاكهة.

8- (يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم)

والتنازع هنا هو المشاركة.. يتشاركون الشراب سوياً لتمام الأنس والمفاكهة..

قال الآخر:

❊❊ نازعته قُضُب الريحان متكئاً❊❊

9- (ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون)

والطواف يعني استمرار الخدمة دون انقطاع، ويعكس ذلك جَوَّ الحفاوة والاهتمام.. ويضيفُ الغلمان لهم، ثم يصف جمالهم (كأنهم لؤلؤٌ مكنونٌ).. وأجمل اللؤلؤ وأصفاه هو المكنون، وقيل للنبي ﷺ: إذا كان الغلمان كاللؤلؤ المكنون كيف المخدمون؟ فقال عليه السلام (هو كالقمر ليلة البدر) كما أورد بن عطية في تفسيره..

كل هذه الصور والمشاهد من التكريم والحفاوة يتمتَّعون بها.. ثم يشرعون في مسامرة وبوح، والآيات تسجل لنا هذه الأحاديث الرِطاب، وهذا البوح الشفيف:

10- (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون)

والإقبال هنا فيه اهتمام وحميّمية ور ضا.. فهم في جلسة أُنس، أقبلوا على بعضهم وهم يتساءلون عن سرِّ هذا النعيم وهذا الخير.. تذكَّروا أيام الدنيا.. وأيام العنت.. ثم صرخوا بهذه الإعترافات:

11- (قالوا إن كنا قبل في أهلنا مُشفقين* فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم* إنا كانا من قبل ندعوه إنه هو البَرُّ الرّحيم)

تذكروا أيام الدنيا .. وإنهم كانوا من أرباب الخوف من الله.. وأقرّوا بأنَّ الله منّ عليهم ووقاهم العذاب، وتذكّروا أنهم كانوا كثيري الدعاء لربهم البر الرحيم.

يسدل الستار على هذه المشاهد اللطيفة، الأنيقة، وقد امتلأت النفس شوقاً، وحنيناً إلى تلك القمم.. ومن ذلك يسوقك هذا التصوير إلى أن تشحذ همَّتك و أنت تكاد تلمس خضراء الجنة .. وتمشي في دهاليزها.

هذه لوحةٌ من داخل الجنة، يسوقها القرآن في تعابير جميلة تأسب اللُّب وتُحرك الوجدان.

الفصل السادس

الألوان في القرآن

الفصل السادس

الألوان في القرآن

الألوان.. من الأشـياء المميزة للحياة.. تنظمُ كلَّ صـورها.. إنسـان، نبات، حيوان جماد.. الشـيء الوحيد الذي لا لون له هو الماء، أما ما عدا ذلك فله لون.. والألوان درجات متفاوتة .. وأصـبحت علماً له قواعده، وفنّاً من الفنون الجميلة له نظرياته وتطبيقاته.

والإنسان قد ولع بالألوان منذ فجر التاريخ .. وتحلّق حولها.. وتفنّن في خياراته في الزي والمباني والأدوات.. ونشأ علمٌ من ضمن منظومة الفنون التشكيلية عني باللون، صناعته، تراكيبه ، ومشتقاته.

والقرآن - ككتاب خاطب البشـرية وشـرّع لها- اهتم بالألوان، وأشـار إليها في مواقع شـتى، وعددها.. تكلم عن اللون الأبيض والأحمر والأخضـر والأسـود، وخلاف ذلك من ألوان في البشـر والشجر والجماد.

ولا شك أن اللون من آليات الجمال، فهو يضفي على الأ شياء طعماً، ويكسيها شخصية.. فهناك الألوان الصـارخة والجاذبة والمنفِّرة .. والألوان الهادئة العاقلة.. واختيار اللون يعكس طبيعة الشخص ومزاجه، لأن الألوان مرتبطة بمخبّات النفوس، والتركيبة المزاجية.

والقرآن كتاب هداية.. والهداية تستصحب كل الآليات المساعدة، ولذلك تناول القرآن اللون والألوان من هذه الزاوية.. وعلى سبيل المثال لا الحصر نقرأ الآيات التالية وهي تعرض ألواناً شتى:

1- اللون الأبيض:

جاء ذكر هذا اللّون في مواقع كثيرة.. جاء يصف واقعاً.. وجاء مجازاً على سبيل الاستعارة ومن المواقع التي ذُكر فيها بياض اللون قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴿١٨٧﴾ ﴾ البقرة: ١٨٧ وقوله تعالى حاكياً موسى عليه السلام في مواجهته لفرعون يوم الزينة: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ الشعراء: ٣٣ وقد تكررت حكاية هذا المشهد في أكثر من موضع: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ النمل: ١٢ ويصف القرآن الخمر في مشاهد الجنة بأنها قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ الصافات: ٤٦ فالخمرة هنا جاذبة لوناً ومحتوى، فهي (بيضاء) .. وهي (لذة للشاربين).

وجاء ا ستعمال اللون الأبيض في مجال التعبير عن حسن الحال عند بعض المؤمنين يوم القيامة، فوجوههم بيض (يوم تبيض وجوه)، ثم يفصَّل ذلك: (وأما الذين أبيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون).

2- اللون الأسود:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٌۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ آل عمران: ١٠٦ وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾ ﴾ النحل: ٥٨ وبتكرر هذا مشهد المكذبين وقد أسودت وجوههم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ الزمر: ٦٠ فإن كان اللون الأبيض لوناً جاذباً، فاللون الأسود لونٌ طارد، في هذه اللوحة يعكس القبح.. واستعاره القرآن ليعبِّر عن حال هؤلاء المكذبين.

1- اللون الأصفر:

في قصة بني إسرائيل وبقرتهم المشهورة، يعرض القرآن لوناً زاهياً جذّاباً يصف به هذه البقرة النفيسة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ البقرة: ٦٩

فأوضــحت الآية أن اللون الأصــفر من الألوان الجاذبة للســرور لأنه لون فاتحٌ فاقعٌ .. وهو من الألوان البهيجة.

ويصف القرآن في مشاهد القيامة النار بقوله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ المرســـلات: ٣٢ - ٣٣ جمالات جمع جِمالة، والجمالة جمعت جمل وهي القلوص.. يصف لونها بالا صفرار.. ويصف مشهد الشرر المستطير من النار بأنه كالقصر.. وأنه مثل جمالات صفر.

ويتناول القرآن اللون الأصــفر في دلالات أخرى غير دلالة البهجة والحيوية.. فهو يعكس أحياناً مرحلة من مراحل الذبول .. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾ الزمر: ٢١ وتتكرر هذه الأدلة في أكثر من آية .. والشـــا هد أن اللون الأصــفر يحمل النقيضين: دلالة الحيوية، ودلالة الذبول الفتور.

2- اللون الأحمر:

وقد ورد في معرض الوصــف العام لنعم الله تعالى في الوجود، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ فاطر: ٢٧ هنا لوحةٌ للجبال التي أرســاها الله، ولفت النظر إلى تعدد ألوانها تناغماً وتبايناً.. وكيف برز الجمال من خلال هذا التباين.. فهي جُدد .. بيض.. حمر .. وغرابيب ســود، حالكة السواد، لتعطيك في النهاية لوحة تيض ألقاً وجمالاً.

اللون الأزرق:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ طه: ١٠٢ أي عيونهم مظلمة لا تبصر والعين إذا زال نورها إزرقّت، وهي لوحة مُنفرِّدة.

اللون الأخضر:

نختتم الحديث عن الألوان في القرآن باللون الأخضر..

واللون الأخضــر هو لون الحياة .. والقرآن ذكر هذا اللون في لوحات كثيرة، وإيماءات متعددة.. منها المحسوس الملموس.. ومنها المرموز.

في مجال الزراعة يقول القرآن:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ الأنعام: ٩٩ ومحور الآية هو هذا الإخضرار الذي ينتظم كل هذه الصورة.

* ويتحدث القرآن عن منن الله علينا.. وكيف أخرج لنا من الشجر الأخضر النار الحمراء ذات اللهب: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ يس: ٨٠

وانظر إلى هذا الإبداع: كمون انار الحارجةة المدمرة في داخل الشجرة الخضراء الحية.. هذا التقابل عجيب آخاذ.. فيه لون أخضر واضح ولون أحمر كامن ويقول القرآن في ذات السياق: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ الحج: ٦٣

ويلفت النظر إلى شكل هذه المراعي الخضراء الممرعات.. وهي الصور البهيّة، البهيجة، التي تجلب العافية. كذلك ذكر القرآن اللون الأخضر في كثير من مشاهد الجنة بل يكاد اللون الأخضر يكون هو الغالب، وهو السيّد في ألوان الجنة ونتكفي بذكر الآيات قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ الرحمن: ٧٦

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾ الإنسان: ٢١

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ الكهف: ٣١

يتجلى لنا مما تقدم من اســتعراض لآيات ذكرت الألوان، أن اللون أخذ حيّزه من الاهتمام في الكتاب العزيز، ولأن الألوان من مكوّنات الحياة التي يضــطلّع القرآن بهدايتها، وتقويمها، اهتم القرآن بذكرها، وعلة أخرى لذكر القرآن الألوان وهي محاولة الإرتقاء بحس المســلم في انتقاء اللون، واختياره، والتعامل في دلالاته المختلفة، وهذه هداية لسلوك حضاري يضيف لحياة الناس، ولحركة التنمية والمشوار الحضاري.

ونختتم هذا الفصل باستعراض هذه الآيات من سورة فاطر والتي ركزت على أصناف من الألوان شكلت هذا الكون بممالكه الأربعة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ فاطر: ٢٧ - ٢٨ هذه الآيات تناولت الكون كله بممالكه الأربعة:

1- مملكة الإنسان: مختلف ألوانه.

2- مملكة الحيوان: والدواب والأنعام مختلف ألوانه.

3- مملكة الجماد: ومن الجبل جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود.

4- مملكة النبات: ثمرات مختلف ألوانها.

هذه الممالك هي مكونات هذا الكون وأهم ما يميزها هو تعدد الألوان وتباينها.. لكي تكون هذا المهرجان الجمالي في صورة هذا الكون البديع وهي إشارة إلى أن اللون ليس شيئاً عابراً (إنما مكون أساسي كحقيقة علمية وإشارة جمالية..

والكون بهذا التنوع والتعدد في الشكل واللون يقود إلى التأمل في قدرة الله فيكون العالمون بأسرار هذه القدرة الباحثين عنها هم الذين ينالون مقام الخشــية من الله .. إذن هي ألوان تقود إلى معرفة الله تعالى.

الفصل السابع

مرتكزات الدراسة القرآنية للجمال

الفصل السابع

مرتكزات الدراسة القرآنية للجمال

1- علم الجمال في التاريخ

نشـــأ علم الجمال. أو الاســـتاطيقا كما يطلق عليه العلماء العرب الأقدمون. في مرحلة تاريخية مبكرة لأن إحســـاس الإنســـان بالجمال من حوله جزء من غريزته وفطرته وتدل النقوش القديمة والكتابات على إرث بشري عريض في هذا الشأن والجمال يمثل جزءً من نسيج حياة الإنسان سواء كان بغرض المنفعة المباشـــرة (الزينة والمعمار والملابس) أو بغرض فنيٌ بحث يَخص المزاج واعتداله مثل الموسيقى والشعر والمسرح وخلافه..

آنشتاين:

ولقد قعد الأســـتاذ أحمد زكي فصـــلاً تناول فيه قضـــية الدين والعلم وتلازمهما.. وعرج على أمر الجمال .. ونقل عبارات أخاذة عن العالم الكبير ألبرت اينشتاين يقول فيها:

(إن أعظم جائشة من جائشات النفس وأجملها تلك التي تستشعرها النفس عند الوقوف في روعة أمام هذا الخفاء الكوني والإظلام. إن الذي لا تجيش نفســه لهذا ولا تتحرك عاطفته حي كميت. إنه خفاء لا نستطيع أن نشـق حجبه، وإظلام لا نستطيع أن نطلع فجره.. ومع هذا نحن ندرك أن وراءه شيئاً هو الحكمة أحكم ما تكون، ونحس وراءها شيئاً هو الجمال أجمل ما يكون، وهي حكمة وهي جمال لا تســتطيع أن تدركهما عقولنا القاصــرة إلا في صــور لها بدائية أولية، وهذا الإدراك للحكمة وهذا الإحساس بالجمال في روعة هو جوهر التعبد عند الخلائق).

ويروي عنه في مقام آخر قوله:

(إن ديني هو إعجابي في تواضع بتلك الروح السامية التي لاحد لها، تلك التي تتراءئ في التفاصيل الصــغيرة القليلة التي لا تســتطيع إدراكها عقولنا الضــعيفة العاجزة، وهو إيماني العاطفي العميق بوجود قدرة عاقلة مهيمنة، تتراءى حيثما نظرنا في هذا الكون المعجز للأفهام. إن هذا الإيمان يؤلف عندي معنى الله)

هذه إشــارات ودلالات واضــحة من عالم جليل هو ألبرت إينشــتاين، تلقي الضــوء على مكانة الجمال في صياغة هذا الكون .. وأن الجمال شيء أساسي وأصيل.. وهي كلمات في مدار التوحيد وهيمنة القدرة على حركة هذا الوجود.

هي إضاءات مستنيرة تثمن ماذهبنا إليه في الصفحات الماضيات.

ومن أقدم المجتمعات التي اهتمت بأمر الجمال ودونت رؤاها حوله المجتمع الإغريقي القديم، مصر القديمة والفراعنة، بابل، الهند، الصين.

ومن الملاحظ أنها مجتمعات تغلب عليها العقائد الوثنية.. والفكر المادي خاصة المدرسة اليونانية القديمة حيث كانوا يؤمنون بخلود المادة واستغلالها عن تدخل آله من خارجها، وانعكس ذلك في تصورهم للجمال فاتجهوا به اتجاهاً حسياً غليظاً مثل النحت والتصوير وقصدوا به أغلب ماكتبوا مخاطبة الغرائز والمتعة الحسية المباشرة.

وجاءت المذاهب الغربية المعاصرة وهي نتاج لتلك الفلسفات القديمة، جاءت تطرح نظريات في الجمال تمشي على نفس الدرب (فنجد أن المذهب الغالب في الثقافة الغربية عند التعريف بماهية الفن، هو المذهب القائل بمبدأ الذوق الجمالي والذي أخذ كمعيار للتفريق بين الفنون وغيرها من أنواع العلوم والمعارف فالفنون عندهم هي ذلك النشاط الذي يصدر عن ميول نحو عمل أشياء أو إنتاج موضوعات بطرق خاصة.

أولاً: من أجل اللذة الخاصة المستقلة: عن أي منفعة مباشرة وهي اللذة التي يستشعرها الفرد عند أدائه الأعمال الفنية حين يشاهدها غيره من الناس.

ثانياً: من أجل اللذة المماثلة التي يستشعرها من مشاهدة أو تأويل الأعمال الفنية حيث يحققها غيره من الناس.

وعلى هذا فالفنان عندهم هو ذلك الشخص الذي يمارس أحد الفنون ابتداء وقبل كل شيء من أجل إشباع الحس الجمالي عن طريق كمال الأداء وبهذا المعنى يكون الفن مجرد مهارة في إحداث الجمال أو استثارة اللذة الجمالية دون أن تكون له أي وظيفة اجتماعية أو غرض معين يرمي إليه الفنان من وراء إنتاجه سوى تلك المتعة الجمالية ذاتها) د. زكريا إبراهيم في كتابه (مشكلة الفن) وهي امتداد لما يعرف بمدرسة الفن للفن.

وبالمقابل فإن القرآن قد تناول ظاهرة الجمال كما أسلفنا من خلال هذا البحث وكانت له مرتكزاته وخصائصه وهو يتناول مفهوم الجمال و سنحاول في نهاية هذه السطور أن نبحث وننقب عن هذه المرتكزات.

2- معالم الطرح القرآني لمفهوم الجمال:

لقد خلق الله سبحانه وتعالى هذا الكون الفسيح الجميل المنسق ولفت النظر إلى مواقع الجمال فيه كما لمسنا في فصولنا السابقة، اهتم بالمفردة الجمالية ودندن حولها.

قال تعالى:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ غافر: ٦٤ تتناول الآية مسرح الحياة.. ونستعرض مقوماته وشخوصه.. في إقرار حقائق علمية وحقائق جمالية فالأرض هنا قرار.. والسماء بناء.. والإنسان الذي هو محور النشاط في هذه الأرض خلقه الله (وصوره فأحسن صورته) وهو ملحظ جمالي.. ثم هيأ لهذا الآدمي مقومات العيش (ورزقكم من الطيبات) .. واختيار كلمة (طيبات) فيها نفس من أنفاس الجمال. والجمال أحد المحاور التي قام عليها هذا الوجود ولقد اهتم القرآن بهذا المحور وذلك أن الله تجلت قدرته.. جميل يحب الجمال كما ورد في بعض الآثار وهو أصل الجمال.. والجمال من صفاته بل أن من أسماءه الحسنى (الخالق البارئ المصور) وهي أسماء ذات دلالة جمالية

ومن أعظم اللوحات التي رسمها القرآن .. لتقريب هذا الجمال الآلهي ما ورد في سورة النور قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ النور: ٣٥

المشكاة: هي الكوة الغير نافذة لكي تعكس الضوء للداخل.

كوكب دري: كوكب مضئ متلألأ.

هذه اللوحة التي يضــرب القرآن بها المثل على نور الله الغالب والذي هو أصــل كل نور.. تفيض وتضج بمهرجان من النور.. فهي تتحدث عن مصباح داخل كوة هذا المصباح محفوظ في زجاجة.. الزجاجة نفسها كأنها كوكب متلألئ.. المصباح داخل هذه الزجاجة المتلألئة.. يضاء بزيت صافي متلألئ.. زيت زيتوني.. أنتجته شــركة مباركة.. لا شــرقية ولا غربية.. يكاد هذا الزيت من صــفاءه.. يشع ضياءً ونوراً.. قبل أن تمسه نار فتشعله.. فإذا مسته النار فهو حينئذ قمة مهرجان الضياء (نور على نور).

صــورة تعكس قمة الجمال وقمة الإحســاس به.. ولقد كان من دعاء رســول الله صــلى الله عليه و سلم (اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ولك الحمد أنت بهاء السموات والأرض، ولك الحمد أنت قيوم الســموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن وأنت الحق...الخ) يتضــح من ذلك أن جمال هذا الوجود يستمد جماله وبهاءه من تجليات أسماء الله وصفاته الجمالية عليه.. ولذلك ما فتئ القرآن ينبه ويلفت النظر لمواقع الجمال في الوجود في تركيز عجيب نلحظه في هذه الكوكبة من الآيات على سبيل المثال:

1قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾ الملك: ١ - ٥

2قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ النمل: ٨٨

والإتقان هو كمال التجويد من الناحية التقنية والجمالية.

ويزخر القرآن بمثل هذه التوجيهات التي تحرض الحس البشـري ليمتلي مناحي الجمال في هذا الكون.

ويبرز هنا سـؤال هام، ونحن نطرح مرتكزات الفهم للجمال في القرآن، ما هي الغاية من هذا الجمال؟ بل من هذا الوجود؟ .. ولماذا خلُق هذا الآدمي؟ نقرأ الآيات من سورة الزاريات قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ الذاريات: ٥٦ ــ ٥٨

روى ابن عطية في تفسيره أن علي بن أبي طالب وعبدالله بن عباس رضي الله عنهم ذكروا في تفسير هذه الآية (إلا ليعبدوني أي إلا لآمرهم بعبادتي فيقروا لي بالعبودية) وحكى الإمام الرازي في تفسيره (إلا ليعبدوني قيل معناه إلا ليعرفوني) فإذن معرفة الله وعبادته هي الغاية القصوى والمطلوبة من خلق الآدميين ومعرفته سبحانه وتعالى معرفة مبا شرة أمر صعب إن لم يكن م ستحيلاً، والسبيل إلى معرفة الله تمم بتتبع آثار قدرته في الخلق وإبداع هذا الوجود وإمعان النظر في هذا الإبداع والانفعال معه ومعرفة أسراره... فيكتشف الإنسان من خلال ذلك مايثري حركة التنمية ويدفع بالحركة الحضارية من اكتشافات وإضافات والمسلم في كل ذلك يدر في محور توحيدي عرفاني... وتنعم البشرية حين تطل عليها هذه النماذج من الآدميين... المسلمين العارفين بالله.. وتذخر الحياة بمهندسين وأطباء وفنانين واقتصاديين وفقهاء عارفين بالله يعمرون الأرض وهم يستحضرون قيم العبودية ويجمعون بين التقنية والتقوى وبين التشييد والتمجيد بل بين الأطروحات التنموية وآداب العبودية ... فيقتربون من النموذج الإبراهيمي وهو يشي القواعد من البيت العتيق ويرفعها كما حكى التنزيل قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ البقرة: ١٢٧

فنلاحظ أن شرف التكليف لإبراهيم برفع القواعد و شرف تجويد مهنة البنيان لم يورثاه انتفا شاً أو رائحة من كبرياء ... وإنما أدى عمله وهو خاضـعٌ منحني لجلال ربه يســأله القبول... وهو بذلك يقدم نموذج المهندس والمقاول العارف بالله المملوء بأدب العبودية، عكس نموذج آخر لبنيان ساق أصحابه إلى الطغيان فكانوا دماراً للبشرية قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ﴾ الفجر: ٦ - ١٣ وفرق بين النموذجين فنحن هنا أمام نموذج لطغاة... عتاة ساقهم البنيان إلى التجبر وأصبحوا دماراً للبشرية... وهيهات بين النموذجين، فالغاية من حياة البشــر.. هي التحقق بالنموذج الإبراهيمي حتى تكون حياتهم إضافة لتنمية المباني وتنمية المعاني... فيعيشون حياة رغدة جميلة... ويفوزون عند الله بجناته العراض، بل تؤكد الأحاديث بأن نهاية ســير العبد في رحلته الجمالية أن يمن الله عليه فيمنحه النظر إلى وجهه الكريم وهي قمة اللذة الجمالية والنشوة ذات الألق قَالَ تَعَالَى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ القيامة: ٢٢ - ٢٣ ولقد صح عن (رسول الله صلى الله عليه و سلم) فيما يرويه الإمام مســلم أنه قال (إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، نادى منادي: (يا أهل الجنة إن لكم عند ربكم موعداً يُريد أن ينجزكموه) فيقولون: ماهو؟ ألم يثقل موازيننا؟

ويبيض وجوهنا؟ ويدخلنا الجنة؟ ويزحزحنا عن النار؟ قال: فيكشف عنهم الحجاب فينظرون إلى ربهم فما أعطاهم ربهم شيئاً أحب أليهم من النظر إليه) وفي رواية (فلا يشتغلون بشيء من نعيم الجنة مادامو ناظرين إلى ربهم) بهذا التدرج ... يحيط الجمال بالمسلم ... من يوم ولادته (في أحسن تقويم) ... وعبر حياته العامرة بأعماره للكون وبأعماره لدواخله بنور المعرفة وانتهاءً... إلى عالم الآخرة حيث النعيم المقيم في جنات الله ... ثم يكون هذا الختام الجمالي الآسر (وجوه يؤمئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة)

ويمكننا بعد هذا المدخل التأصيلي أن نضع الإطار لمعالم الطرح القرآني في فهم الجمال فيما يلي من محاور:

1/ القرآن هو كتاب الله وهو كلامه المسطور والكون بأكمله هو كلامه المنشور قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ الكهف: ١٠٩

ولذلك عندما يجئ القرآن ليدل الخلق على أن يلتفتوا إلى مواقع الجمال في هذا الكون فأن أمر طبيعي.. يتناغم فيه وتتسق كلمات الله المسطورة وكلماته المنشورة والمبثوثة في تضاريس هذا الكون.

2/ من ضمن أغراض القرآن وهو يلفت نظر الإنسان إلى تتبع مواقع الجمال في الكون أن يرتقي بحس الآدميين وأذواقهم .. فيتعلمون كيف يقلدون الطبيعة في جمالها.. فيجملون حياتهم من خلال تدافعهم ومسيرتهم الحضارية وهذا ما فطن إليه الإنسان حين حاكى الطبيعة في أغلب اكتشافاته (الطيران والطير، الكمبيوتر وتلافيف العقل البشري...الخ)

3/ يتضح من خلال اهتمام القرآن بالجمال أنه اهتمام يجمع بين تذوق الجمال والهدف من الجمال.. فالجمال في الطرح القرآني .. يراد لذاته ثم يراد لغرض أكبر.. وهو التعرف على الله في آلائه ونعمه وعباداته والإخبات إليه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾ الكهف: ٨ - ٩

وهنا تظهر خصائص المدرسة القرآنية في أمر الجمال. فهو يقر بأن ما على ظهر الأرض هو زينة وجمال وأناقة، وهي ضرورية لمسيرة الحياة وعمران الأرض.. ولكنه يحدد الهدف من ذلك (لنبلوهم أيهم أحسن عملا) وإحسان العمل أو إساءته لا تتضحان إلا من خلال الممارسة (فامشوا في مناكبها) .. وحركة التنمية.

فالله هنا حبب إلى الآدميين الأرض بما خلق عليها من زينة جاذبة أخاذة ليصبح الجمال من ضمن حداة ركب البشرية في زحفها وحركتها الحضارية.. وكل ذلك ليضعهم في محك الامتحان (ليبلوهم أيهم أحسن عملا) وهنا يظهر الفارق بين الاتجاهات الأخرى واتجاه القرآن ويتضح أن نظرة القرآن للجمال تدور في فلك توحيدي عرفاني يقود العبد إلى ساحات ربه (إلا ليعبدون).

4/ على خلاف نظريات الجمال عند الأقدمين والتي تتلخص في أن الجمال هو لذة فقط فإن القرآن يراعي الضوابط الأخلاقية فيجمع بين الطرح الجميل الأنيق وبين الارتقاء بمشاعر المسلم وعدم الهبوط بها إلى مستوى الحيوان، ولنأخذ مثلاً العلاقة بين المرأة والرجل أو مايُعرف في الثقافة الغربية (قضية الجنس)، يتعرض لها القرآن كظاهرة و ضرورة أساسية من ضرورات الحياة ولكن ريشة القرآن تسموا وهي تعبر عن هذه الظاهرة تعبيراً سامياً يرتقي بالحس البشري:

(أ) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ الأعراف: ١٨٩

(ب) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٧ فعبر عن قضية الجنس بهذا التعبير الموحي (قضى زيد منها وطراً) وهو تعبير أنيق.

(ج) وعلى هذا النسق نقرأ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾ النساء: ٤٣ (د) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ ﴾ البقرة: ١٨٧ واللباس هو الستر.. والقرآن هنا استعمل كلمة الستر في وصف مشاهد لا ستر فيها عند الآخرين.. ولكنه الق القرآن وطعم القرآن.

وبذلك يستحضر القرآن.. الهم الرسالي والطهارة الاجتماعية ويرتفع بالحس البشري.

5/ نلاحظ أن القرآن تو سع في النظر للجمال وتمددت دائرته ف شملت كل ممالك الوجود.. من إنسان، حيوان، نبات، جماد. وخرج بها من دائرة دندنت حولها الثقافات القديمة

وهي جمال الجسم البشري فقط وفي ذلك توسيع لمدارك الآدميين ولفتهم إلى صفحة هذا الوجود الضخم الفخيم.

6/ والقرآن حتى وهو يتناول نعيم الجنة لا يفوته أن يغرس فينا معاني الطهارة والعفة ومعلوم أن (الحور العين) هي من نعم الجنة المشهورة فالقرآن وهو يتناول الحديث عن الحور العين يصفهّن أوصافاً كلها حياء.. وارتقاء بالحس.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢ ﴾ الرحمن: ٧٢

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦ ﴾ الرحمن: ٥٦ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣ ﴾ الواقعة: ٢٢ - ٢٣

كلها أوصاف تصب في أودية العفّة .. والطهارة والنقاء والجمال الجاذب فهو هنا يجمع بين الأمرين، تجويد الجمال.. وإحاطته من الزالق.

الخلاصــة:

يتضح من تلك المعالم أنفة الذكر أن نظرية الجمال في القرآن يمكن أن تقوم على مرتكزات أساسية وأركان يمكن تلخيصها فيما يلي:

1- الجمال في الطرح القرآني قيمة أ سا سية من قيم هذا الوجود وليست أمراً هامشياً وهو كلك من أمر العزائم أيضاُ لأن القرآن استصحب الحقائق الجمالية وهو يتناول أكثر القضايا جدية. قضية البعث في سورق (ق) وهي سورة مكية والقرآن المكي معروف اللون.

2- القيمة الجمالية في القرآن قيمة واسعة شاملة تعمل في ميادين الكون العريض كله، الإنسان، الحيوان، النبات، الجماد ولا تنحصر في الجسد البشري.

3- من باب التوسع في فهم الجمال تناول القرآن نوعين من الجمال:

أ) جمال محسوس: وهو يتعلق بالماديات والمحسوسات في هذا الكون خلقاً وإبداعاً.

ب) جمال معنوي: حيث تناول مفردات (الصبر الجميل/ الهجر الجميل/ الحسن والإحسان والسماحة).

4- الجمال في الطرح القرآني يتميز بأنه يجمع بين لذة الشعور بالجمال وبين القيمة الأخلاقية.. وهذا يضع أمر الجمال في إطار وسائل المعرفة بالله والسير إليه تعالى من باب تذوق الجمال والانفعال معه ويكون الجمال بذلك من ضمن و سائل الجذب إلى سبيل الله ومعرفته والـ سير في طريق تحكيم شريعته حتى تكون الحياة نظيفة عفيفة طاهرة جمال مبنى وجمال معنى.

خاتمة المطاف:

اشــتمل هذا البحث على ســتة فصــول ومقدمة.. المقدمة تحدثت عن الجمال من نظرة عامة، وأشارت إلى أنّ القرآن تناول الظاهرة الجمالية من زوايا شتى.

الفصـــل الأول ركّز اهتمامه على (كلمة جمال) وورودها في القرآن، وتحدث عن ســـحر القرآن وجاذبيته، وأثر هذا الجذب على أصـناف من البشـر مخالفون، أهل الكتاب ومسـلمون ثم حاول أن يتلّمس أســباب السـحر والجاذبية في القرآن، وخلص أن أن القرآن بنســيجه المميز يمثل (الظاهرة القرآنية)، وهي العنصـر الأســاســي في جاذبيته، وأنّ معمار الكلمة في القرآن له لونٌ خاص، وطعمٌ ورائحة.

أما الفصل الثاني فقد أُفرد للحديث عن كيفية لفت القرآن النظر إلى حقائق جمالية وهو يسوق أدلَّته ويحاور مخالفيه في أعقد القضــايا مثل قضــيّة البعث، واتخذّ جزءاً من ســورة (ق) للدلالة على هذا الأمر، ممّا يتضـح معه أنّ هذه السـورة حشـدت الدلائل الجغرافية والكنتورية والفلكية، وعلى نفس المستوى ساقت الحقائق الجمالية.

والفصـــل الثالث كان محوره جمالُ هذا الكون المحســـوس، والإشـــاراتُ القرآنية إلى مكوِّناته، واللفتات الجمالية في هذه المكوِّ نات في مما لك الأرض، والســماوات، الجمادات، النبات، والحيوان.

وجاء الف صل الرابع ليكمِّل صورة هذه الجماليات، فتحدّث عن م شاهد الجمال في عالم الآخرة حيث و صف القرآن الجنّة، واختار الكاتبُ مشهدين من مشاهد الجمال في الجنة في سورتي الواقعة والطور.

في الفصـــل الخامس تكلَّم البحث عن الألوان في القرآن، وليبرهن أن الألوان – كظاهرة في هذا الكون– تعرّض لها القرآن وتناولها من زوايا مختلفة.

ولملم البحث أطرافه في فصـــلٍ ســادس تناول المرتكزات الأســاسـية للمدرسـة القرآنية في فهم الجمال.

والكاتبُ – بعدُ– لا يزعم أنه ا ستقصى كل الجوانب المحيطة بهذا المو ضوع.. وهيهات، ولكنّه يعتبر أن ماقام به هو مجرد مقدّمات وشنشنة حول القرآن والجمال، لعلّه بذلك يفتح شهية أصحاب التخ صص والدّار سين في هذه المجالات، وي ستفز كوامنهم، فتيحركون لإ ضافاتٍ أخرى، وبذلك يكون قد أثرى التجربة الجمالية بمزيد من الإيضاح.

والله من وراء القصد

عرفان وامتنان:

وفي نهاية هذه التطورات في آفاق الجمال والقرآن لا يملك الكاتب إلا أن يزج خالص شكره وامتناه لكل الذين ساهموا في إخراج هذا العمل إلى حيز الوجود ويخص منهم الأسادة المذكورين بعد:

1/ الأخوة في إدارة ندوة (إقرأ) الفقهية العلمية بمدينة جدة ومن خلفها إدارة الشركة العربية الإعلامية وعل رأ سعها سعادة الشيخ/ صالح كامل والأ ستاذ/ الدكتور أحمد محي الدين والذين كانوا هم الدافع الرئيس لكتابة هذا البحث.

2/ السيد/ وزير الشؤون الاجتماعية والثقافية بولاية الخرطوم الأستاذ/ هاشم هارون أحمد والذي وافق على نشر هذه الرسالة ضمن سلسلة الخرطوم عاصمة الثقافة العربي 2005م.

3/ الأخوة في إدارة هيئة الخرطوم الجديدة للصحافة والنشر.. وعلى رأسهم الأستاذ الطاهر حسن التوم وبقية العقد الفريد.

4/ مجموعة الشباب من الأ ساتذة الذين سهروا على مراجعة نصوص هذه الر سالة ومراجعتها وطباعتها في صورتها الأولية وهم حسب الترتيب الأبجدي:

- أمير محمود عبدالسلام.
- حامد محمد حامد.
- علي عثمان قشي
- نسبة مصطفى باسعيد
- جليلة مختار عثمان.
- صلاح عثمان علي.
- كوثر الصافي جعفر.

الشكر من قبل ذلك كله ومن بعد الله ربنا الكريم الجواد على ما أفاض وأنعم ونسأله القبول.

مراجع البحث

1- القرآن الكريم:

تفسير وبيان مفردات القرآن: الشيخ أحمد كفتارو

المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية

مفاتح فهم القرآن: بروفسير/ أحمد علي الإمام

2- السنة:

صحيح الإمام البخاري

3- السيرة النبوية:

سيرة ابن هشام

4- مؤلفات أخرى:

زاد المعاد : ابن القيم

وحي القلم : مصطفى صادق الرفاعي

التصوير الفني في القرآن : سيد قطب

الظاهرة القرآنية : مالك بن نبي

محتويات البحث

بطاقة فهرسة 2
إهـداء 3
من الناشر 4
تقديم 6
مفاتحة وترحاب 10
الفصل الأول السحر والجما في الطرح القرآني معمار الكلمة القرآنية 13
الفصل الثاني مظاهر الجما في العبادات 25
الفصل الثالث قضية البعث والملحظ الجمالي نموذج من سورة ق) 31
الفصل الرابع القرآن وجمال الكون عالم الدنيا) 41
الفصل ال مس القرآن وخضراء الجنة عالم الآخرة نموذج سورة الواقعة نموذج سورة الطور 66
الفصل السادس الألوان في القرآن 83
الفصل السابع مرتكزات الدراسة القرآنية للجمال 92
الخلاصـة 107
خاتمة المطاف : 108
عرفان وامتنان : 110
مراجع البحث 112
محتويات البحث 114